منشورات
مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة (43)

الكفرة الغامضة

تأليف
دانتي ماريا تونينيتي

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور وهبي أحمد البوري

مراجعة
صلاح الدين حسن السوري



بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

الطبعة الأولى

2005

رقم الإيداع: 2005/6736

دار الكتب الوطنية بنغازي

الرقم الدولي الموحد

ردمك: ISBN 9959 - 23 - 093 - 7

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية

بنغازي - ليبيا

هاتف: 9090509 - 9096379 - 9097074

بريد مصور - 9097073

البريد الالكتروني: .nat - Lib - Libya @ hotmail - com

منشورات
مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

سلسلة الدراسات المترجمة رقم (43)

الكفرة الغامضة

IL MISTERO DI CUFRA

تأليف
دانتي ماريا تونينيتي
DANTE MARIA TUNINETTI

ترجمة وتقديم وتعليق:
الدكتور وهبي أحمد البوري

مراجعة:
صلاح الدين حسن السوري



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
2005

تقديم

هذا الكتاب ـ كتاب الكفرة الغامضة لمؤلفة دانتي تونينيتي، والذي نضعه بين يدي القراء اليوم ـ مثل نموذجاً لبعض الكتابات التي واكبت الغزو الإيطالي لليبيا والتي كان همّها الدعاية الاستعمارية والرد على منتقديها، بتبريرها وتعديد فوائدها والمبالغة في مردوداتها ورسم صورة خيالية «للغد المشرق» الذي ينتظرها.

والمؤلف، بحكم موقعه في الحزب الفاشيستي وقربه من قائد الحملة الجنرال غرازياني، أتيحت له فرصة مرافقة الحملة منذ بدايتها وحتى نهايتها. فوصف أحداثها بالأسلوب الدعائي المبالغ فيه، محققاً بذلك الغرض الذي رافق الحملة من أجله.

ولا نريد في هذا التقديم المختزل استباق القارئ لما احتواه الكتاب من موضوعات، ولا تكرار ما ورد في مقدمة الأستاذ المترجم وفي تعليقاته من معلومات وضعت الكتاب في مكانه الصحيح، وشرحت المبررات التي دفعته إلى ترجمته. فتكفي الإشارة إلى القوى غير المتكافئة لدى الطرفين، وإلى مقاومة المجاهدين وصمودهم والنيل من عدوهم وتكبيده الخسائر في الأرواح والأموال والعتاد، وإلى تجاوزات العدو الإجرامية وعملياته الإرهابية التي طالت الشيوخ والنساء والأطفال، وإلى العبث بالمقدسات التي وصلت إلى رفع العلم الإيطالي على أعلى مئذنة في الواحة.

وربما يستوقف القارئ بشكل خاص، الفصل المتعلق بسلاح الطيران واستخدامه في عمليات الإبادة، وإشارة المؤلف - مباشرة أحياناً وضمنياً أحياناً

أخرى ـ إلى شجاعة المجاهدين واستماتتهم، وكذلك الفصل الأخير الذي خصصه لدور الواحات في إطار المخططات الفاشستية المستقبلية ـ السياسية منها والاقتصادية.

والمؤلف كتب كتابه هذا بلغة فصيحة وأسلوب جميل يلفت النظر فيه تلك الصور البيانية الجميلة للصحراء ونباتها وسرابها وآفاقها وأمسياتها ولياليها. مما جعله ـ أي الكتاب ـ أقرب إلى أدب الرحلات .

بقي أن نسجل بإعجاب قيمة الترجمة التي قام بها الدكتور وهبي البوري والتي جاءت نتاج خبرة طويلة في هذا الميدان، وتمكن من اللغتين العربية والإيطالية وإطلاع واسع في آدابهما. لقد سابق المؤلف في فصاحة كلماته، وفي الصور البلاغية التي اتسم بها كتابه، فجاءت الترجمة العربية فصيحة في لغتها، جميلة في أسلوبها، مع المحافظة الأمينة على النص كما ورد في الأصل.

وللمعلومية فإن الدكتور وهبي البوري من مواليد الإسكندرية سنة 1916م، ومن الخريجين الليبيين الأوائل الذين كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة حيث نال درجة الدكتوراه في اللغة الإيطالية وآدابها من جامعة روما سنة 1943، وتقلد عدة وظائف إدارية وسياسية ودبلوماسية في الدولة الليبية. وكانت له اهتماماته الثقافيه التي رأينا نماذج لها فيما نشره في مجلة ليبيا المصورة، التي صدرت في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي. وعرف بدراساته الأدبية، وأيضاً بأعماله الإبداعية خاصة في مجال القصة القصيرة، وله ترجمات ومؤلفات عديدة، آخرها كتابه عن بنغازي في فترة الاستعمار الإيطالي، الذي نشره سنة 2004 . فتمنياتنا له بطول العمر وبالصحة والعافية ومزيد العطاء.

وننهي هذا التقديم السريع بشكر كلّ من بذل الجهد في سبيل إخراج هذه الترجمة إلى حيز الوجود. وهم كثيرون، أخص منهم الأستاذ علي الزواوي وزملاءه في شعبة النشر. والأستاذة غادة الزروق، التي تابعت هذا العمل إلى أن وصل هذه المرحلة – مرحلة الإعداد للطبع، ولم تتوقف متابعتها له واهتمامها به

حتى بعد تعيينها لمنصب المدير العام للشئون الإدارية والمالية في هذا المركز، وما ترتب عليها من أعباء ومشاغل جديدة. والشكر أيضاً للأستاذ سالم حسين الكبتي، الذي كان حلقة اتصال دائمة بين الأستاذ المترجم وشعبة النشر في هذا المركز، وهو الذي أحضر صورة من الكتاب في أصله الإيطالي ونسخة من الترجمة، كما أعدّ السيرة الذاتية للأستاذ وهبي البوري التي اعتمدنا عليها في هذا التقديم.

أما الأستاذ الدكتور محمد الطاهر الجراري، فكعادته دائماً، يولي مثل هذه الأعمال اهتمامه الخاص ويبذل لها وقته وجهده ويوفر لها كل الإمكانيات التي يحتاجها، فله جزيل الشكر وفائق التقدير، وحتى لقاء آخر على موضوع علمي كهذا نرجو من الله النجاح والتوفيق.

صلاح الدين حسن السوري

مقدمة المترجم

الكتاب الذي بين يدي القرّاء الكرام، لمؤلفه دانتي ماريا تونينيتي Dante M. Tuninetti ممثل الحزب الفاشيستي في برقة، والذي رافق حملة احتلال الكفرة، يروي قصة احتلال هذا الجزء الأخير من الأراضي الليبية، بعد أن ظل لقرابة أربعين عاماً رافعاً راية الكفاح الوطني ضد المستعمرين في ليبيا واتشاد.

وقد قمت بتعريب هذا الكتاب والتعليق عليه، رغم أسلوبه المتعجرف، وما تضمّنه من عبارات الاستهجان بالليبيين كافة، وذلك كي لا أحرم المكتبة العربية الليبية من مستند تاريخي يسجل مرحلة هامة في تاريخ النضال الوطني وما صاحبها من مقاومة بطولية للمجاهدين وأعمال بربرية وحشية ارتكبها الغزاة.

لقد كانت الكفرة مركز إشعاع روحي وفكري وملتقى للطرق الصحراوية الكبرى، وسوقاً تجارية هامة في قلب الصحراء، وقد ظلّت الكفرة المنطقة الحرة المصانة التي لم يصل إليها أي غاز أجنبي، وقد اكتسبت هالة من القدسية والهيبة والمناعة، الأمر الذي جعل الإيطاليين يتردّدون كثيراً قبل الإقدام على غزوها.

أدرك سكان الكفرة، بعد احتلال إيطاليا لجالو والواحات الواقعة على خط العرض 29 في عام 1928 أن واحتهم أصبحت الهدف القادم للقوات الإيطالية، وأن عليهم أن يستعدوا لمواجهة هذا الخطر، وتولى زعماء قبيلة زوية مقاليد الأمور في الكفرة وحوّلوها إلى قاعدة عسكرية ينطلق منها المجاهدون لمهاجمة الحاميات الإيطالية في جالو وجنوب بنغازي والاستيلاء على قوافل التموين،

وإشغال الإيطاليين في اشتباكات متواصلة، حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه قوات المغاربة بقيادة المجاهد الكبير صالح لطيوش قد اتخذت على جبال الهاروج قاعدة لها لمواصلة الحرب في المربع القائم ما بين اجدابيا والعقيلة ومرادة وجالو، وقد استطاعت الوصول إلى النوفلية واحتلال العقيلة وأسر من فيها من جنود، وكانت قوات عمر المختار، في الوقت نفسه تسيطر على الجبل الأخضر وتشغل القسم الأكبر من القوات الإيطالية، ومن خلال هذا المناخ الحربي المشجع، تولّدت في الكفرة فكرة القيام بعملية حربية كبيرة لضرب العدوّ في قلب تنظيمه العسكري بجالو التي تفصلها عن الكفرة ثمانمائة كيلومتر من الأراضي الصحراوية الجرداء العارية، وتكوّنت الحملة من قرابة خمسمائة مقاتل تولى قيادتهم الشيخ صالح بوكريم الذي قاتل الفرنسيين في اتشاد ووقع في أسرهم وقضى خمس عشرة سنة في السجن، ثم عاد إلى الكفرة ليواصل جهاده.

ووصلت الحملة، بعد خمسة عشر يوماً من المسير، إلى واحة اجخرة فاحتلتها واستولت على ما كان فيها من أسلحة وجنود ومؤن، وظلت بضعة ايام تسيطر على المنطقة إلا أنها بدلاً من مهاجمة جالو قرّرت الاتجاه إلى اجدابيا لمهاجمتها ولتحريض القبائل الموجودة حولها على الثورة ومهاجمة القوات الإيطالية المعسكرة بالمدينة.

وانزعجت القيادة الإيطالية وأمرت بتعبئة جميع قواتها لإيقاف زحف المجاهدين على مراكزها الرئيسية، فأمرت بتحرك قواتها المرابطة في جالو واجدابيا وسلوق وقوامها ما يقارب الألفي رجل مزودين بالمدفعية والسيارات المصفحة والطائرات التي كانت تتبع الحملة وتدل القوات البرية على مواقعها، وأطبقت القوات الإيطالية من ثلاثة اتجاهات على المجاهدين بالقرب من بئر بوعتلة في يوم 29 يناير 1929 حيث دارت معركة عنيفة دامية سقط فيها العديد من رجال الطرفين، غير أن خسائر زوية كانت أفدح بسبب وجودهم بأرض

عارية لا مكان فيها للوقافة أو الاختفاء، عرضتهم لقنابل الطائرات ونيران المدافع والسيارات المصفحة ورصاص بنادق ورشاشات الجنود، استشهد في المعركة أكثر من نصف المجاهدين وعلى رأسهم البطل المجاهد صالح بوكريم الذي بدأ حياته مجاهداً وختمها وبندقيته بيده، وعاد إلى الكفرة الناجون من الموت ليشاركوا في معركة أخرى أكبر وأهم...

وقد تجمّع في الكفرة العديد من الزعماء والمجاهدين من طرابلس وبرقة بعد احتلال القوات الإيطالية لفزان والواحات الواقعة على خط العرض 29، واتخذوا هم وإخوانهم الزوية من تازربو قاعدة لمواصلة الحرب ضد الحاميات الإيطالية في جنوب بنغازي وصحراء سرت، بقصد تخفيف الضغط على المجاهدين في الجبل الأخضر، وقد خشي الإيطاليون أن تأتي الإمدادات من مصر والسودان إلى الكفرة ثم تتسرّب إلى عمر المختار ورجاله، الذين حاصرتهم القوات الإيطالية من كل مكان وقطعت عنهم الإمدادات والمؤن، كما كان الإيطاليون يخشون أيضاً تسرّب المقاتلين من الكفرة إلى الجبل الأخضر لتعزيز قوات المجاهدين هناك وشد أزرهم.

استغرق الإعداد لحملة الكفرة عدة أشهر، وشاركت فيها قوات من طرابلس وبرقة المكوّنة من جنود مرتزقة من أرتريا والصومال وأثيوبيا واليمن وغيرها من بلاد شرق أفريقيا بالإضافة إلى مرتزقة ليبيين، ومن قرابة خمسمائة إيطالي (معظمهم من الفنيين) ومن مئات السيارات والمصفحات والمدافع والرشاشات و(27) طائرة وأكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة بعير لحمل المؤن والمياه والذخيرة.

ومهّد الإيطاليون للحملة بغارات جوية إرهابية على تازربو يوم31 /1930/7 حيث ألقيت المتفجرات وغازات (ابريت Yprite) السامة التي تسببت في وفاة الكثيرين وألحقت عاهات خطيرة بمن ظل على قيد الحياة[1]، كما أغارت الطائرات على الجوف والتاج وألحقت الأضرار والوفيات بهما.

(1) Eric Salerno - Genocidio in Libia - Sugarce - Milano 1979, p. 59.

كان الإيطاليون يدركون جيداً بناء على ما تجمع لديهم من معلومات، أن عدد المجاهدين الذين سوف يواجهونهم لن يتعدى الأربعمائة مجاهد، ومع ذلك فقد ظلّت هزائم الكولونيل مياني في فزان والقرضابية (1914 - 1915) ماثلة في أذهان المسئولين الإيطاليين ككابوس مرعب، الأمر الذي جعلهم يعدون هذه الحملة الضخمة ويتخذون جميع الاحتياطات لأي طارئ بما في ذلك الهزيمة، وكان التفوّق الإيطالي ساحقاً في الرجال ونوعية السلاح والعتاد.

لم تكن معركة الكفرة قتالاً بين قوتين متواجهتين وإنما كانت معركة بين حفنة من المجاهدين المسلّحين بالبنادق البسيطة وبين الطائرات والمدفعية والرشاشات الإيطالية، وقد قام الطيران بدور هام في المعركة حيث تولّت خمس عشرة طائرة رصد مواقع المجاهدين وتحرّكاتهم وإمطارهم بنيران مدافعها ورشاشاتها ثم إرشاد المدفعية والرشاشات المنصوبة على التلال إلى مواقعهم لتصليهم بنيرانها المكثفة، وكانت الطائرات تتعقب وتقصف مجموعات المجاهدين التي كانت تحاول الالتفاف على جناحي العدو وضربه في أماكن ضعفه، كما كانت ترشد القوات البرية إلى مواقع الذين يفلحون في التسلل داخل صفوف العدو لإرباكه وإلحاق الخسائر به، وذلك بالإضافة إلى سيل الرصاص الذي كانت تطلقه بنادق المرتزقة، ودام صمود المجاهدين طوال اليوم رغم جحيم المتفجرات المنهمرة عليهم من الجو والأرض ورغم ما لحق بهم من خسائر فادحة، وعثر الإيطاليون في نهاية القتال على قرابة مائتي شهيد توسدوا الرمال التي ماتوا في سبيلها وكان أكثرهم عقلوا أرجلهم كي لا يغادر ميدان المعركة حتى الموت.

كان الرجال الذين دافعوا عن الكفرة وعن شرف أرضهم من صفوة من تبقى على قيد الحياة من الزعماء والقادة والرجال الذين دافعوا على مدى عشرين عاماً عن وطنهم شبراً بشبر وأرووا كل قطعة من أرضهم التي تخلوا عنها بدمائهم وبأشلائهم، وكانوا يدركون أنه لا طاقة لهم بآلة الحرب الجهنمية الزاحفة عليهم، إلا أنهم كما اعترف المؤلف كانوا من نوعية الرجال الذين لا يرضون

بالتخلي عن وطنهم دون قتال ودماء، وقد كان في مقدورهم مغادرة الكفرة في وقت مبكر مع عائلاتهم وممتلكاتهم إلى الأقطار المجاورة إلا أنهم فضّلوا الموت على تلال الرمال المؤدية إلى الجوف والتاج بدلاً من التخلي عنها بدون قتال.

ودخل الجنود الإيطاليون والمرتزقة الكفرة وعاثوا فيها فساداً، فقتلوا ونهبوا واعتدوا على الحرمات وعلى البيوت وارتكبوا كل منكر وعار، وجاء من طرابلس مسرعاً الجنرال بادوليو حاكم ليبيا العام، ليرفع شخصياً العلم الإيطالي فوق الزاوية السنوسية وبوسطه الصليب وذلك كي لا يترك هذا الشرف العظيم لغريمه ومنافسه الجنرال غراتسياني. ودنّس الجنود والضباط الإيطاليون والمرتزقة بأقدامهم أرض الزاوية وعبثوا بمحتوياتها ولم يراعوا حرمة الموتى المدفونين بها، ومن بينهم السيد المهدي، ورفع أحد الضباط مصحفاً وصاح في الناس الذين كانوا يرتعدون خوفاً وفزعاً قائلاً إن هذا الكتاب سبب تخلّفكم ثم ألقى بالمصحف على الأرض وداسه بأقدامه.

وأمرت القيادة الإيطالية بقتل كل من يوجد بحوزته أي سلاح أو يشتبه في أنه شارك في القتال، ثم جمعوا بعض المشائخ المقيمين في الواحة وأمروا بشنقهم وتجوّل القادة الإيطاليون في أرجاء التاج والجوف وشاهدوا ما أحدثته قنابل طائراتهم بالمساكن الهشّة التي مات تحت أنقاضها العديد من النساء والأطفال والشيوخ.

ولم تكتفِ القيادة الإيطالية بما ارتكبه جنودها بسكان الكفرة من أعمال بربرية يندى لها جبين الإنسانية، بل أمرت الطائرات وجنود الهجانة بمطاردة المجموعات من الناس الذين أرادوا اللجوء إلى البلاد المجاورة وقصفهم بالقنابل والرشاشات في وسط الصحراء، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والحيوانات وبدّدوا المؤن والمياه. وكانت الطائرات تقوم بعد ذلك بإرشاد الهجانة إلى مواقع المذابح، فكانوا ينقضون عليها كالذئاب المفترسة فيقتلون من تبقى على قيد الحياة من الرجال ويسبون النساء ويستولون على ما تبقى من حيوان وممتلكات.

ووصف مؤلف الكتاب هذه المذابح بفخار وتبجح فكتب: «في فجر اليوم التالي لاحتلال الكفرة واصلت الطائرات مطاردة الفارين ولم تترك مجموعة منهم على طرق القوافل الجنوبية والشرقية الا وأصلتها بقنابل ونيران رشاشاتها وشتتها، فكان الرجال يختبئون وينبطحون على الأرض، وكانت القذائف تمزّق البشر والإبل وتبدّد المؤن والمياه ومن المعلوم أن من يوجد في الصحراء بدون وسائل نقل وبدون مياه فمصيره الموت الأكيد».

وعثرت قوات الحدود المصرية على بعض التائهين في الصحراء وعلمت منهم ما حلّ بالناس الذين غادروا الكفرة طلباً للنجاة وأن أكثرهم ماتوا من العطش والباقون ضائعون في الصحراء وسيلاقون نفس المصير إذا لم تصلهم النجدات في الوقت المناسب، وانطلق رجال الحدود المصرية يجوبون الصحراء لإنقاذ من تبقى على قيد الحياة من الفارين من جحيم الكفرة ونقلهم إلى الأراضي المصرية.

واهتمت الصحافة المصرية وبعض الصحف الأجنبية بهذه المأساة واستنكرت الأعمال البربرية التي تقترفها إيطاليا ضد الشعب الليبي، وطوى النسيان هذه الصفحة كما طوى غيرها من قبل دون أن يتحرك الضمير الإنساني ليقول لهؤلاء الجزارين كفى.

لم يتورّع الإيطاليون الذين يدعون العراقة في المعرفة والفن عن نهب وتدمير مكتبة الكفرة العظيمة التي كانت تضم عشرات الآلاف من المخطوطات والكتب النادرة والنفيسة التي استغرق جمعها قرابة قرن من الزمان، وكانت هذه المكتبة منارة علم ومعرفة في قلب الصحراء، فبعثر الجنود الكتب على الأرض وداسوها بأقدامهم واستعملت كوقود لطهي طعامهم، ثم أخذوا منها ما شاؤوا وتركوا الرياح تنتزع صفحات هذه الكتب وتوزّعها في كل مكان، وذكر شهود عيان أن أرض الكفرة ومبانيها وأشجارها غطّيت بصفحات تلك

الكتب الممزقة والمبعثرة[1]، وأخذ الجنود ما شاء لهم من الكتب وعادوا بها إلى بنغازي لعرضها للبيع، وأخيراً تحرّكت السلطات الإيطالية فأمرت بنقل ما تبقى من هذه الكتب إلى بنغازي وقدّرت بخمسة آلاف كتاب بقصد نقلها فيما بعد إلى إيطاليا، إلا أن الحرب حالت دون ذلك، وتركت الكتب في المخازن دون أية عناية وامتدت إليها الأيدي ولم يتبقَّ منها في النهاية أكثر من ألفي مجلد سلمت إلى إدارة أوقاف بنغازي.

تعتبر معركة الكفرة آخر حلقة في سلسلة المعارك الكبيرة التي اتسم بها الصراع الليبي الإيطالي، وآخر جزء من ليبيا الحرّة تحتله إيطاليا، وقد أحدث احتلال الكفرة تأثيراته السلبية على المقاومة المسلحة ضدالإيطاليين في جنوب بنغازي وصحراء سرت وفي الجبل الأخضر، حيث يواجه المجاهدون جميع قوات وإمكانيات إيطاليا في برقة المدعمة بقوات من طرابلس، وصمد عمر المختار ورجاله في وجه القوات الإيطالية الكبيرة لقرابة العامين، رغم الحصار المضروب حولهم وافتقارهم للمؤن والذخيرة والوقت الكافي لمعالجة جرحاهم، وانتهت هذه الملحمة البطولية الرائعة باستشهاد عمر المختار وتشتت رجاله ما بين قتيل وأسير ولاجئ إلى الديار المصرية.

(1) محمد الطيب الأشهب ـ برقة العربية ـ القاهرة 1946 ـ ص 484.

مقدمة

صدور كتاب عن الكفرة لا شك أنه موضوع الساعة. باستثناء الفصول الثلاثة الأولى التي تروي تاريخ وجغرافية تلك الواحات الصحراوية وتوضح أسباب الاحتلال السياسية فإن الكتاب سردي وهذه ميزته الرئيسية.

مستقبل واحات الكفرة وهو موضوع الفصل الأخير في الكتاب، فهو بيد الله كمستقبل جميع الأشياء.

من الواجب أن نترك وقتاً للزمن كي نستطيع أن نحكم أو نتنبّأ، ولا ننسى أبداً أن التاريخ يعد بالأجيال لا بالعقود أو بالسنوات.

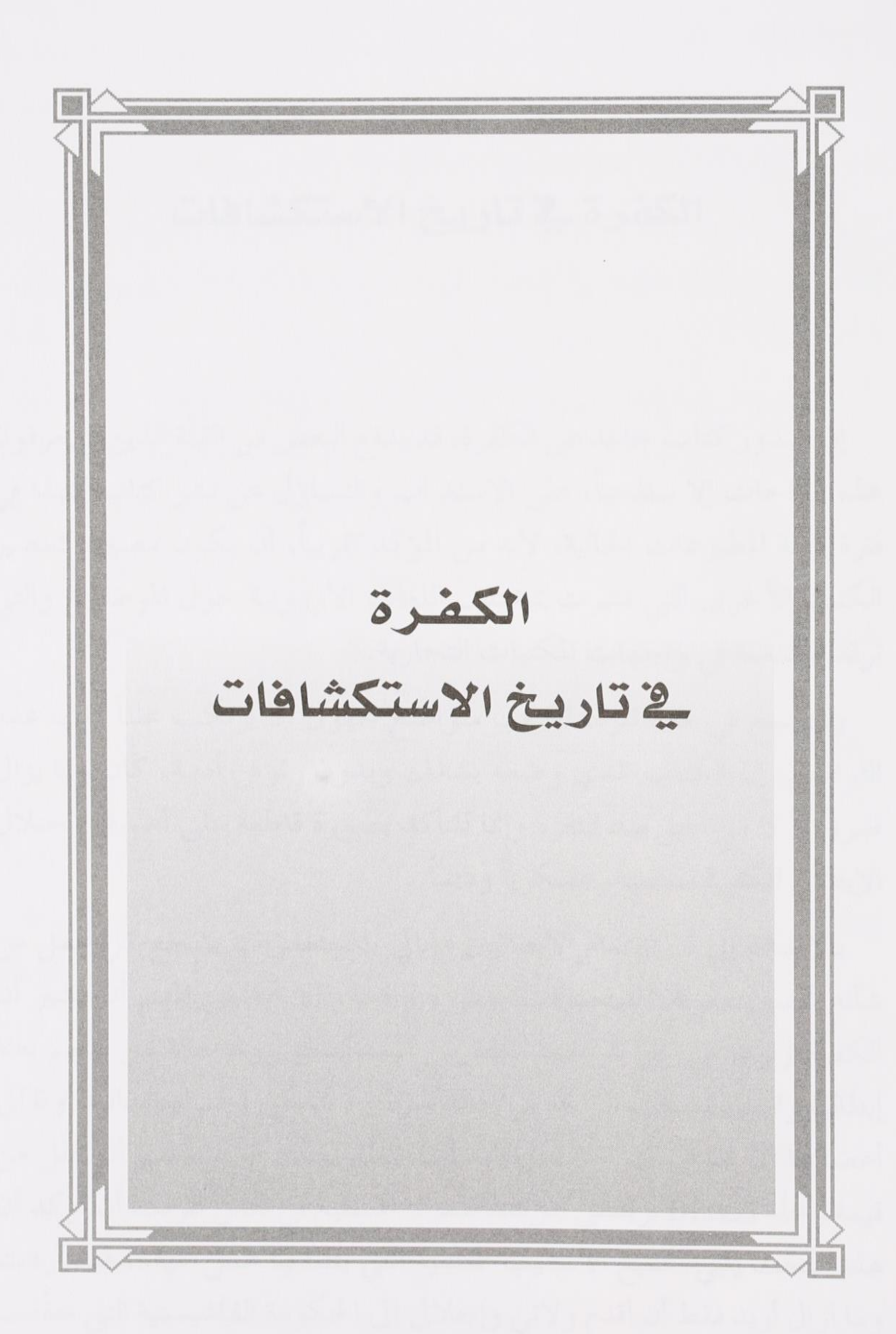
إن وصف الحملة وكيف تمّت والأحداث البارزة فيها يقدمها شخص تتبعها خطوة بخطوة، وباستثناء اهتمامه كإيطالي وفاشيستي، لم يكن لديه أي غرض آخر يريد تحقيقه، ولذلك فإن سرده للأحداث جاء صادقاً وموضوعياً.

وضع الكتاب بأسلوب هادئ ويقرأ في دفعة واحدة، قد يروق ويجب ان يروق للرجال والنساء والشيوخ والشباب، وأرجو ان يعجب الشباب بصورة خاصة ويحمسهم للعمل الاستعماري لأني لن أكلّ من التكرار بأنّ علينا أن نبحث عن عظمة ايطاليا فيما وراء البحار، أما هنا ما بين حدودنا وما بين الماضي والحاضر فإن ايطاليا الفاشيستية أصبحت دولة عظمى.

إن كتاب دانتي تونينيتي، بالإضافة إلى مزاياه الأدبية التي لا أستطيع الحكم عليها وأترك ذلك لغيري، يرقى في نظري إلى مستوى عمل دعائي استعماري وإشارة عادلة لرؤسائنا وجنودنا الذين قاتلوا هناك، ويتولون الحراسة والذين يحتلون جزءاً مميزاً في قلبي كجندي قديم.

أميليو دي بونو(*)

* ـ كان أميليو دي بونو وزيراً للمستعمرات الإيطالية وقت احتلال الكفرة، وكان والياً لطرابلس في فترة 1925 ـ 1928م، وقد انضم في عام 1943 إلى المجموعة التي أسقطت موسوليني في مجلس الفاشست الأعلى وألقي عليه القبض بعد أن خلّص الألمان موسوليني من الأسر واتهم بالخيانة وحكم عليه بالإعدام وأعدم عام 1944م. وكان استعمارياً متطرفاً وهو الذي صرّح امام البرلمان الإيطالي عام 1931م، إن إيطاليا تريد أرض ليبيا لا شعبها. المترجم



الكفرة

في تاريخ الاستكشافات

الكفرة في تاريخ الاستكشافات

إن صدور كتاب جديد عن الكفرة، قد يدفع البعض من القلّة الذين لا يعرفون هذه الواحات إلا سطحياً، على الاستغراب والتساؤل عن نشر كتاب كهذا في فترة أزمة المطبوعات الحالية، لأنه من المؤكد تقريباً، أن يكون مصيره كمصير الكتب الأخرى التي نشرت بمختلف اللغات الأوروبية حول الموضوع والتي ترقد مكدّسة في واجهات المكتبات التجارية.

وليسمح في هذه المرة، لكاتب متواضع مجهول أن يرتكب علناً ذنب عدم التواضع، إن الكتاب الذي وضعه بشغف وبدون رتوش أدبية، كان وما يزال ضرورياً لا من أجل سدّ الثغرة وإنما للتأكد بصورة قاطعة على أهمية الاحتلال الإيطالي للكفرة سياسياً وعسكرياً ودينياً..

بالإضافة إلى أن اهتمام الإيطاليين الحالي بالمستعمرات يشجع كل عمل من شأنه تحسين معرفة المستعمرات بصورة واقعية، إلا أنه من المهم أن نشير أن الكفرة زارها في كل تاريخها سبعة من المستكشفين والرحالة من بينهم بعثة إيطالية واحدة وصلت الواحة في حالة اسر، ولم تتمكن رغم استعدادها وتفاني أعضائها أن تقوم بالدراسات والأبحاث المطلوبة، لا أريد بذلك أن أقلّل من قيمة رحلة Brezzi بريتسي المؤكدة كما لا أستطيع في نفس الوقت أن أؤكد أن هذا البحث يلبي جميع الأساليب العلمية التي يتطلبها عمل كهذا، فقد أردت وما أزال أريد فقط أن أقدم ولائي وإجلالي إلى الحكومة الفاشيستية التي حقّقت

عملية احتلال القلعة السنوسية البعيدة والإشادة بشجاعة القوات التي قامت بالاحتلال وتغلّبت على جميع الصعوبات التي وضعتها الطبيعة والإنسان في طريقها.

وليسمح لي أن أشغل القارئ قليلاً قبل أن أدخل في صلب الموضوع فأود أن أضيف:

1 ـ وصل الكفرة ستة من الرحالة حسب الترتيب الزمني من عام 1879م إلى عام 1923م وجميعهم من الأجانب الذين كان هدفهم علمياً بحتاً، وهو عمل مشكور، إلا أنه أقل مما كنا نريده نحن الإيطاليين.

2 ـ إن أغلب هؤلاء الرحالة الذين وصلوا الكفرة بعد صعوبات ومخاطر جمّة قد جرّدوا من الأجهزة الفنية التي كانت بحوزتهم وعوملوا معاملة سيئة ومنعوا من الوصول إلى وادي الكفرة أي إلى مجموعة الواحات.

3 ـ البعثة الإيطالية الوحيدة برئاسة الكابتن الطبيب Brezzi بريتسي، أُلقي عليها القبض في الزيغن ونقلت إلى الكفرة، استطاعت أن تجمع معلومات عن طريق القياسات وما أدلى به المواطنون.

4 ـ لقد استفادت البعثات السابقة لبعثة بريتسي من موافقة السنوسيين مقابل تعهد أدبي بالتعرّض سطحياً للمسائل التي لا ترغب السنوسية البحث فيها.

5 ـ لم يكن في إمكان جميع الرحالة الذين وصلوا الكفرة أن يستعملوا وسيلة نقل حديثة مثل الطائرة التي تسهل بصورة كبيرة ملاحظة المواقع والحصول على رؤية بانورامية ومعرفة المنطقة بشكل تقريبي في وقت قصير وبأقل جهد.

6 ـ شارك أربعة من المدنيين في عمليات احتلال الكفرة وكنت أحدهم ولا أدري إذا كان أحد زملائي وأصدقائي لديه ما يدلي به أكثر مما نشرته الصحف حول عملية الاحتلال التي تمّت يوم 20 يناير.

7 ـ لا شك أن منظر طبيعة المنطقة قد تغير تغيراً جذرياً كما يبدو من دراسة الخرائط المرفقة ومن المقارنات التي سنبديها لأن التصحيح واجب ومطلوب.

وبعد هذه المقدمة والملاحظات الأخرى التي سأبديها، حين يأتي الوقت المناسب، في هذا الكتاب، سنلقي نظرة على الاستكشافات الجغرافية لواحة الكفرة بداية من 1879 م تاريخ وصول أول أوربي إليها.

ونبدأ بالرحالة الألماني المشهور جيرالد رولفس الذي عرف برحلاته الخطرة في أفريقيا، كانت رحلته الأولى من مراكش إلى طرابلس عبر جبال الأطلس المغربي وجنوب الجزائر وواحة غدامس (1864 ـ 1865) ثم رحلته الثانية من طرابلس إلى غدامس والعودة إلى مزدة، وسفره إلى مرزق، ومنها إلى لاغوس عن طريق السودان، (1865 - 1867)، ثم رحلته الثالثة التي بدأها من طرابلس إلى بنغازي ـ سلنطة ـ مراوة ـ جالو ـ اوجله ـ الجغبوب ـ سيوة ـ ثم الاسكندرية (1868 ـ 1869)، وغادر رولفس طرابلس عام 1878 متجهاً إلى أوجله وجالو عبر الجفرة واختراق الصحراء الليبية إلى واحات الكفرة للوصول إلى واداي.

وواجه رولفس في رحلته هذه صعوبات كثيرة، واضطر إلى التوقف في أوجله مدة طويلة في حين سافر رفيقه الدكتور ستيكر إلى بنغازي للحصول على مساعدة السلطات التركية، وواصل رولفس رحلته إلى تازربو ثم الكفرة، وهنا واجه التهديد بالقتل وسلب ما كان معه فاضطر إلى الفرار إلى الهواري يوم 29 سبتمبر في طريقه إلى بنغازي بعد أن تخلى عن إتمام رحلته إلى الجنوب، ووصل بنغازي يوم 25 أكتوبر سالكاً الطريق نفسه التي استعملها في ذهابه والتي أطلق عليها «طريق قوافل زوية»، وأطلق فيما بعد على الطريق الشرقية جالو ـ الزيغن ـ الكفرة «طريق القوافل الكبيرة إلى الواداي».

كان جيرالد رولفس أول رحالة أوربي وصل الكفرة وأول من قدّم لنا

معلومات مفصلة عن الصحراء الليبية[1]، تولى تعديلها وتصحيحها المستكشفون الذين جاءوا بعده.

وبعد رحلة رولفس، وقبل صدور كتابه الذي نستقي منه بعض المعلومات عن واحة الكفرة، نشر الكابتن كامبيريو (Camperio) رئيس جمعية ميلانو للاستكشافات التجارية في افريقيا تقريراً في مجلة «المستكشف» عام 1880 قدّم فيه بعض المعلومات عن الكفرة، ويستند كامبيريو على المعلومات التي جمعها خلال رحلته إلى طرابلس واهتم بصورة خاصة بطرق القوافل الداخلية التي وضعها على خارطة تضم طرابلس وتونس وبرقة، وذكر كامبيريو أن جميع رجال القوافل من بدو الدواخل وأن الرحلة من بنغازي إلى الواداي كانت تقطع في سبعة وخمسين يوماً مروراً بالكفرة. وأرسل قنصل بريطانيا في بنغازي تقريراً إلى وزارة الخارجية البريطانية ذكر فيه أن الرحلة من بنغازي إلى الكفرة تتطلب مسيرة عشرة أيام من بنغازي إلى أوجله مع التوقف يومين في الطريق ومن أوجله إلى جالو يوم واحد مع توقف ثلاثة أيام ويوم من جالو إلى بوالطفل، وتوقف يومين وسبعة أيام من بئر بوالطفل إلى بئر الزيغن وتوقف يومين وأربعة أيام من بئر الزيغن إلى واحة الهواويرى، وتوقف يوم واحد ومسيرة يوم واحد من الهواويرى إلى واحة الكفرة والإقامة بها خمسة عشر يوماً قبل الشروع في رحلة العودة.

أما الرحالة الثاني الذي وصل الكفرة لم يكن أوربياً بل كان عربياً تونسياً وهو الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي الذي قام بالرحلة بتكليف من الماركيز دي مور الفرنسي، فقد غادر الشيخ محمد الحشائشي بنغازي يوم 19 مايو 1896 متجهاً إلى الكفرة التي وصلها بعد رحلة دامت شهراً واحداً، ثم غادر الكفرة إلى ودّان ومرزق وغات وعاد إلى مرزق ومنها سافر إلى طرابلس عن طريق سوكنه ومصراته[2].

---

1 - رحلة من طرابلس إلى واحة الكفرة - بقلم جيرارد رولفس لايبسج 1881.

Gerard Rohlfs - Reise Von Tripolis Nach Deroase Kofra, Leipsig - 1881.

2 - رحلة إلى بلاد السنوسي عن طريق طرابلس وبلاد الطوارق بقلم محمد بن عثمان الحشائشي.

Voyage Au Pays Des Senoussie - Challomel - Paris 1903.

والرحالة الثالث الذي وصل الكفرة وهو الأوربي الثاني ضابط الصف الفرنسي لوران لابيير Laurent Lapierre آمر مركز جانيت الذي أسر بعد سقوط الواحة بأيدي آمر مركز جانيت الذي أسر بعد سقوط الواحدة بأيدي السنوسيين في شهر مارس 1916 بعد اقتحامهم لقلعة فورشاليه. وقد نقل مع من تبقى من رجاله إلى واو الكبير عن طريق حمادة مرزق وسبها وزويلة وقد وجد في واو فرنسيين آخرين أسرى ومجموعة من الجنود الإيطاليين أسروا خلال الحرب التي دارت في فزان والأراضي المجاورة، وقد أسر أيضاً الكابتن بترانياني خلال اقتحام السنوسيين لقارة سبها، الا انه استطاع الفرار بمعجزة وقطع منطقة السرير على الأقدام، وقدّم لنا معلومات عن ضابط صف فرنسي نقل إلى الكفرة بعد فراره، وذكر لابيير أن القافلة التي نقلته من واو إلى الكفرة غادرت واو يوم 15 اغسطس 1918 ومرّت بواو الناموس ووصلت تازربو عن طريق لم يجتزها أوربي من قبل، وسلكت القافلة من تازربو إلى الكفرة الطريق التي اجتازها رولفس قبل 39 عاماً ووصلت الهواويرى يوم 11 نوفمبر 1918 أي نفس اليوم الذي توقف فيه القتال على الجبهة الغربية الفرنسية (نهاية الحرب العالمية الأولى)[1].

وأطلق سراح لابيير في أول أبريل 1919 حيث شرع في رحلة العودة بقافلة مرّت بالزيغن وبوالطفل وجالو وأوجله واجدابيا والزويتينه، حيث استقبلته القوات الإيطالية ونقلته إلى بنغازي ومنها أبحر على ظهر الطراد الفرنسي إلى بنزرت...

وقد قدّم لابيير، وهو رحالة رغم إرادته، بعض المعلومات السطحية حول المناطق التي اجتازها والتي رغم قلة أهميتها فإنها ساهمت في توسيع المعرفة عن واحة الكفرة التي احتكرها الدكتور رولفس حتى تلك الفترة[2].

---

1 ـ انريكو بترانياني «الصحراء الطرابلسية ـ روما 1928».

Enrico Petragnani - Il Sahara Tripolitano - Roma 1928.

(2) Deux episodes de la guerre en Sahara: le rapports du Mareshal des Logis Laurent Lapierr. 1º- le siège de djanet, 2º - prsoniere a koufra renseynement colorneaux avril - 1920 - p.p. 6 - 91 - Fasc 4.

2 ـ لوران لابيير ـ حادثان في حرب الصحراء، حصار جانيت وأسير بالكفرة، مجلة المعلومات والوثائق الاستعمارية ـ ابريل 1920 ص 69 ـ 91 العدد 4.

وبعد أقل من عامين من عودة (لابيير) من الكفرة الواحة الصحراوية الغامضة قامت باستكشافها امرأة أوربية الرابعة بين الرحالة الذين وصلوا الكفرة، والثالثة بين الأوربيين.

فقد استطاعت روزيتا فوربس الإنكليزية أن تتحصّل من الأمير محمد ادريس السنوسي على إذن بزيارة الكفرة في أواخر عام 1920 وذلك بناء على توصية من حاكم برقة آنذاك الكونت دي مارتينو. ورافق روزيتا فوربس الدبلوماسي المصري أحمد حسنين بك الذي تلقى تعليمه في بريطانيا وكان مثقفاً وضالعاً في عدة علوم.

وغادرت السيدة فوربس ورفيقها بنغازي في ديسمبر 1920 متخفية في ملابس سيدة ليبية تحت اسم الست خديجة. وتكوّنت قافلتها من تسعة جنود سنوسيين وخادمة ودليل وثلاثة رجال من البدو وبعض الجمّالين، وتوقفت القافلة يوم 20 ديسمبر في جالو ثم واصلت الرحلة في اليوم التالي إلى بئر بوالطفل وحلّت يوم 1921/1/2 ببئر العطش (يحتمل أن يكون بئر بوعتلة الظاهر في الخارطة الحالية للمنطقة) الواقع في الطرف الغربي الأقصى لبئر الزيغن. ووصلت الرحالة الشجاعة إلى بزيما يوم 6 يناير واتجهت نحو الجنوب بموازرة خط العرض الثاني والعشرين، وبعد مسيرة أربعة أيام، وصلت القافلة الحد الشمالي لواحة الكفرة، وقد استطاعت بفضل رسالة السيد ادريس أن تزور الواحة والقرى بما فيها التاج المحرّم دخولها على غير المسلمين.

لم تزد إقامة السيدة فوربس في الكفرة على عشرة أيام إذ كانت تخشى أن يرى الناس أجهزتها العلمية فيكتشفون حقيقتها، وبعد ما قررّت السفر، نجت السيدة المسلمة المزورة بأعجوبة من هجوم قام به بعض قطاع الطرق التبو. وقد وصلت الجغبوب عن طريق بئر بود اكار وبئر بوسلامة، واستطاعت السيدة فوربس بفضل تخفيها ورفقائها وبصورة خاصة بفضل توصية السيد ادريس أن تدخل مدينة الجغبوب المقدسة وتزور زاويتها، ثم غادرت بعد بضعة أيام إلى

سيوه ودخلت مصر ومنها أبحرت إلى أوربا.

واتسمت رحلة فوربس، تحت جميع الوجوه، بأهمية ملحوظة وخاصة بالنسبة لنا لأنها سلكت في طريق عودتها من الكفرة إلى الجغبوب طريقاً لم يسلكه أي أوربي قبلها.

وقامت السيدة فوربس بنشر المعلومات التي جمعتها والصور الكثيرة التي التقطتها في كتاب طبع في لندن في نفس عام 1921 وأهدته إلى رفيقها في الرحلة أحمد حسنين بك[1].

وقد قام حسنين بك، وهو حالياً كبير ياوران الملك فؤاد، برحلة ثانية في الصحراء الليبية عام 1923 وهي أكثر نتائج من الأولى، فقد سافر من سيوة نقطة الوصول في الرحلة الأولى، واتجه إلى الجغبوب وجالو وبئر بوالطفل ومن هنا واصل رحلته سالكاً طريق قوافل زوية التي سلكتها بعد خمس سنوات البعثة الصحية الإيطالية، ماراّ ببئر الحرش، الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب شرق بئر العطش، متجهاً إلى واحة الهواويرى، ويكون بذلك قد قطع الطريق ما بين جالو والكفرة في خمسة عشر يوماً حيث وصل واحة التاج يوم أول أبريل.

وظل حسنين بك ثمانية عشر يوماً يتجول في الواحات وجمع مواد غزيرة وأجرى الكثير من الملاحظات التي أكدت وأتمت دراسات البعثات التي سبقته، وقرّر حسنين بك مواصلة رحلته في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو منطقة اركنو والعوينات المعتبرة داخل الحدود الإيطالية والتي لم يسبق لأحد آخر الوصول إليها في تلك الفترة..

وبعد أن تجاوز حسنين بك المنطقة الصحراوية الصعبة، تفقد بعناية المنطقة الجبلية الواقعة إلى شرق وشمال شرق العوينات، ثم واصل الرحلة إلى أدرى.

---

1 ـ روزيتا فوربس: سرّ الصحراء ـ لندن 1921.
"The Secret of the Sahara" by Rosita Forbes casseland company LMD, London1921.

ومن أدرى اتجه حسنين بك إلى الأنيدى الشرقي الذي اجتازه ووصل بعد ذلك إلى السودان المصري ـ الإنكليزي، ومن هناك عاد إلى الساحل، وجمع حسنين بك النتائج الهامة التي تحصل عليها ونشرها في كتاب صدر في لندن عام 1925 مع مقدمة كريمة من السير رينيل رود[1].

في شهر اكتوبر من العام نفسه وصل الفرنسي برونو لابوري Bruno De Laborie إلى واحة الطلاب الواقعة عند ملتقى خط الطول 23 بخط العرض 24، قادماً من خليج غينيا ومارا بالكاميرون ووادي وبوركو، وقد اتجه من واحة الطلاب إلى التاج حيث أقام أربعة أيام في المدينة المقدسة، ثم شرع في العودة سالكاً طريق بئر الزيغن ـ بوالطفل ـ جالو ومن هناك سلك طريقاً معاكساً للطريق الذي سلكه حسنين بك ووصل ساحل البحر الأبيض عن طريق جالو وسيوة.

لم يأتِ الفرنسي لابوري بنتائج هامة حول الصحراء الليبية إلا أن له الفضل أن يكون أوّل أوربي عرف طريق الوادي ـ الكفرة التي كانت ضمن مشروع رولفس الذي تخلى عنه مضطراً، ونشر لابوري نتائج رحلته هذه في كتاب صدر عام 1924[2].

كانت بعثة الدكتور بريتسي الاخيرة في الترتيب الزمني الأولى التي نظمها وقام بها إيطاليون، وتكوّنت من أعضاء إيطاليين برئاسة الكابتن الدكتور جيرفاني بريتسي في الفترة من اكتوبر 1928 إلى مارس 1929. وقد عرض الدكتور قصة هذه البعثة المشؤومة في كتاب نشر قبل ما يقارب الستة أشهر[3].

لقد لبّت حكومة برقة طلب محمد إدريس العابد السنوسي عن طريق ولديه اللذين وصلا بنغازي وهما أحمد بن ادريس وعبد المطلب، بإرسال بعثة طبية

---

1 ـ الواحات المفقودة بقلم أحمد حسنين بك ـ لندن 1925.

2 ـ من الكامَيرون إلى القاهرة عن طريق الصحراء الليبية ـ بقلم برونو دي لابوري فلاماريون ـ باريس 1924.

3 ـ مئة يوم من الأسر في الكفرة ـ بقلم جواني بريتسي ـ موندادوري فيرونا 1930.

إلى الكفرة، وقد أرادت الحكومة أن تتعرف على المنطقة التي لم يجتزها أبداً أي إيطالي، فنظمت في سبتمبر 1928 بعثة طبية زودتها بأدوات فنية كثيرة وجهزتها للقيام برحلة صحراوية طويلة، وقد غادرت البعثة جالو في أول أكتوبر مصحوبة بابني السيد محمد العابد لضمان سلامة الأعضاء الإيطاليين، ووصلت البعثة إلى بئر بوالطفل فتزودت بالمياه ثم واصلت مسيرتها مساء 3 أكتوبر في الاتجاه الجنوبي ـ الشرقي بعد استراحة في وادي الزيغن في يومي 9 و10 أكتوبر.

وفي الصباح الباكر لليوم التالي واصلت القافلة سيرها إلا أنها في الساعة السابعة صباحاً أحاطت بها محلة من الزوية الذين قاموا بانقلاب على السيد العابد فأسقطوه وأعلنوا الجمهورية(*) واعتقلوا جميع أعضاء البعثة وقادوهم إلى الكفرة التي وصلوها يوم 21، وكان من بين أفراد المحلة بعض الثوار من مدينة بنغازي، وكانت البعثة تتكوّن من الدكتور بريتسي والمسئول عن الراديو ضابط الصف بوليقيدو Poligeddu والسكرتير المترجم الدو فورناري Aldo Fornari وكان الحادث مؤلماً ومهيناً وتعرّضت البعثة لمختلف الإهانات والتهديد، وأخيراً قرّر عبد الحميد بومطاري السياسي الذكي والماكر، إيفاد فورناري إلى مصر للحصول على الفدية اللازمة لإطلاق سراح الأسرى، وطلب بصورة سرية مبلغاً خاصاً له مقابل وساطته، ووصل فورناري إلى سيوة عن طريق لم يسبق لأوربي أن طرقها من قبل، ومنها سافر إلى الاسكندرية التي أبحر منها إلى بنغازي، وعاد بعد ذلك إلى سيوه ومعه النقود التي أودعها لدى أشخاص موثوقين، وبعد أن تأكد عبد الحميد بومطاري أن كامل المبلغ أودع لدى من يثق بهم وبعد أن أخذ نصيبه، أمر بإخلاء سبيل الأسرى الذين وصلوا سيوة يوم 26 مارس سالكين نفس الطريق التي سلكها فورناري.

ومنذ هذه الفترة إلى وقت الاحتلال الإيطالي ورفع العلم المثلث الألوان على

* ـ ان السيد محمد العابد كان ممثلاً للسنوسية في الكفرة ويعتبر حاكماً عليها وقد ثار عليه الزوية لاتصاله بالإيطاليين ودعوته لهم بإرسال بعثة صحية لعلاجه وأمروه وأسرته بمغادرة الكفرة فلجأ إلى التشاد.
المترجم

زاوية التاج وتحطيم آخر مقاومة، لم يزر الكفرة أحد باستثناء العمل الجريء الذي قام به الطيران الإيطالي في شهر اغسطس الماضي عندما قصف بالقنابل واحة الجوف وقرية التاج كمظهر لإرادة إيطاليا الأكيدة بفرض سيادتها على جميع الأراضي التي أقرّتها لها المعاهدات والتي احتلها أبناؤها الأبطال.

وتعتبر آخر رحلة للكفرة هي التي قام بها المؤلف وثلاثة من المدنيين وهم الصحافي ساندرو ساندري والسينمائي فيتوريو دينامي ومندوب صحيفة (كوريري ديلا سيرا) اكيللي بنيدتي وقد رافق جميعنا القوات العاملة، وفي الوقت الذي سار فيه دينامي وساندري مع القوات البرية وشاركوها التعب والمخاطر، فقد رحلت مع بنيدتي بالطائرة إلى بئر الزيغن وثم إلى الكفرة التي تحررت من العبودية[1].

ولا شك أن كثيرين آخرين سيزورون الواحة الخضراء، المعزولة داخل الصحراء المجدبة، وستخترق القوافل والسياح السرير القاحل وخاصة بعد أن عثر الرائد لورنزيني على طريق للسيارات تأكدت صلاحيتها بمرور ثلاث قوافل سيارات عليها، إلا ان تجربتنا لن يمر بها غيرنا فقد قضينا أوقاتاً من القلق والانفعال في انتظار كشف أسرار المدينة المقدّسة الأسطورية ورؤيتها بعيوننا المحمرة من الرمال الملتهبة بشمس أفريقيا.

1 ـ تحرير الكفرة من العبودية في المفهوم الفاشيستي يعني تدمير واحتي التاج والجوف بقنابل الطائرات وإبادة نصف سكان الواحات وإطلاق يد الجنود وإعطائهم حرية القتل والنهب والسلب وأسر الحرائر.
المترجم

معلومات ومقارنات حول منطقة الكفرة

معلومات ومقارنات حول منطقة الكفرة

من المؤكد أن وجود مجموعة واحات الكفرة كان معروفاً من قبل، وقد أشار العالم الألماني فرديرك هورنمان Frederik Horinman لأول مرّة إلى وجود هذه الواحات وكان أول وأكبر مستكشف زار دواخل ليبيا وتحدث عنها[1].

كان هورنمان متعمّقاً في العلوم الطبيعية والفلكية والفيلولوجية (اللغوية)، وزار مصر عام 1797 ـ 1798، وغادر الاسكندرية إلى سيوة ومنها إلى جالو وأوجلة واتجه بعد ذلك إلى مرزق فوصلها بعد شهرين ونصف من بداية رحلته ثم زار فزان وعاد إلى طرابلس عن طريق الحمادة. وعاد إلى مرزق بعد إقامة أربعة أشهر في طرابلس حيث انضم إلى قافلة بعض التجار المسلمين المتّجهة إلى بوركوالتي لم يستكشفها أحد من قبل، ومن بوركو اتجه إلى نهر النيجر حيث قضى نحبه بالقرب منه دون أن يحصد ثمار اكتشافاته الشجاعة والمفيدة.

وخلال رحلته من أوجله إلى فزان سمع من رفقائه التجار العرب عن وجود

1 ـ إلى الجنوب الغربي من اوجله وعلى بعد عشرة أيام أو مائتي ميل يقيم الغيبابو (اسم قديم كان يطلق على سكان الكفرة) وقد ظلّت الواحات الداخلية تعرف لفترة طويلة باسم كيبابو (غيّر الغاء إلى كاف) وفيما وراء ذلك لبضعة أيام في اتجاه الجنوب تقيم قبيلة البرقو والقبيلتان تنتميان إلى التبو ويقال انها كانت وثنية، ويقال إن بلادهم كانت جميلة ومثمرة، والغريب ان الأواجلة عندما يتحدثون عن هذه القبائل يستعملون نفس المقارنة التي استعملها هيرودوت في حديثه عن سكان الكهوف الأثيوبيين الذين كان يطاردهم الجرمنت «لغتهم شبيهة بزقزقة العصافير» (صفحة 143 من تقريره بالألمانية الذي أرسله من طرابلس إلى الجمعية الافريقية بلندن قبل عودته إلى مرزق)..

واحات الكفرة التي قرر أن يزورها في وقت آخر إلا أن الموت حال بينه وبين أمنيته.

كان جيرالد رولفس، كما سبق وذكرنا أول من زار الكفرة، وقد حاول في المرّة الأولى عام 1868 أن يصل إليها إلا أنه أخفق، وأعاد المحاولة بعد إحدى عشرة سنة وأفلح في الوصول إليها، ومن خلال رولفس تحصلنا على المعلومات الأولية حول هذه المنطقة البعيدة بالإضافة إلى المعلومات الفنية الجغرافية التي مكّنته من وضع أول خارطة جغرافية لصحراء ليبيا الشرقية حتى مدار السرطان وحدود مصر.

إن تتبع خط سير رولفس خطوة بخطوة ينقلنا بعيداً ويضطرنا إلى تحليل دقيق للرحلات التي قام بها خلفاؤه، ومع ذلك لا نستطيع أن نتخلى عن إلقاء نظرة على الطريق التي سلكها والتي ستمكننا من التعرف على أرخبيل الكفرة الصحراوي.

ونبدأ بمقدمة ضرورية تعين القارئ على تفهم أكثر للتطورات اللاحقة في هذا الكتاب وهي أنه أصبح من المتفق عليه إطلاق اسم الواحات الخارجية على الواحات الصحراوية التي لكل منها اسمها، البعيدة عن وادي الكفرة بعشرات ومئات الكيلومترات، وتفصلها عن ارخبيل الكفرة عقبات طبيعية ككثبان الرمال وسلاسل الجبال وصعوبة الأرض، في حين يطلق اسم الكفرة على الواحات التي يضمها منخفض وادي الكفرة والذي يطلق عليه العرب الحوض الواقع في قلب الصحراء الليبية.

كان رولفس خبيراً بالصحراء وبتقلبات مناخها الذي لا يستقر بسبب قفزات درجات الحرارة الشديدة جداً والتي تعرض مقاومة الجسم الأكثر تعوداً إلى تجربة قاسية، ولذلك عندما غادر أوجله التي كان يعتبرها على مستوى البحر فتزود بملابس ثقيلة وبكل ما يحتاجه في رحلة صحراوية طويلة، وقطع المسافة

ما بين أوجله وجالو في ست ساعات على أرض مستوية (في إمكاننا أن نؤكد أن الأرض اليوم تبدأ من جالو في ارتفاع غير محسوس يصل إلى الثلاثين متراً)، ووصل مساء اليوم التالي إلى بئر بو الطفل شرق جرينيتش وحدّد الموقع الفلكي كما يلي: 28 / 56 / 22 عرض شمال و 21 / 44 / 10 طول، وعدلها حسنين بك عام 1923 إلى 28 / 54 / 26 عرض شمال و21 / 45 / 15 طول شرق وهي التعديلات التي قبلت بالاجماع.

لم يعثر رولفس على الواحة التي كان يؤمل في اكتشافها وإنما عثر على برك مياه تحيط بها عيدان القصب لا غير، ولذلك واصل سفره في اليوم التالي في السرير متجهاً نحو الجنوب ـ جنوب غرب، ووصف رولفس السرير بدقة ما عدا تأكيده أن الأرض مستوية باستمرار، حيث أصبح من المعلوم أن الأرض من جالو إلى التاج أي لمسافة 600 كلم يتغير مستواها بما يزيد على أربعمائة متر، وذلك بسبب انحناء مستوى الأرض الصحراوية وكتب رولفس يقول في هذا الصدد:

«إن أرض السرير الكبير المستوية باستمرار تتكوّن من حصوات مستديرة ناعمة جداً، حتى يخال للمرء أنه يسير على سرير من البازيلاء أو العدس المتحجر وكثيراً ما تصادفنا أماكن حصوها أكبر حجماً».

وكانت تازربو هدف القافلة الثابت وقدَّر رولفس بعدها من بئر بو الطفل بثلاثمائة وستين كيلومتر تقريباً على خط مستقيم والذي يؤكد رولفس أنه قطعها في أربعة أيام وعشر ساعات دون توقف ليلاً أو نهاراً، ونتقبل تأكيده هذا بتحفظ كبير.

ولاحظ رولفس من خلال رحلته وادياً على بعد 150 كيلومتراً جنوب بوالطفل (الوادي الفارغ)، ويقول إن البادية يعتقدون أنه امتداد لقناة تتوغل حتى زلة التي تقع على أكثر من درجة شمالاً ومن أربع درجات غرباً.

تعتبر واحة تازربو الواحة الأبعد شمالاً من بين واحات الكفرة الخارجية وتكوّن الحد الغربي للأرخبيل نفسه، لم يتوقف رولفس في تازربو بعد دخوله إليها بل واصل سيره حتى بئر قيرانقيدي حيث حطت قافلته.

وقد دهش رولفس وأعجب باتساع وثراء النباتات في الواحات التي تتكون منها تازربو، والتي قدّر ارتفاعها عن سطح البحر بحوالي مئتين وخمسين متراً، واندهش رولفس أيضاً لكثرة المياه في البحيرات الكثيرة التي يعيش فيها العديد من طيور البط والأوز المتوحشة، وحدّد الدكتور ستيكر رفيق رولفس موقع تازربو الفلكي بـ 44 / 34 / °25 عرض وشمالي و20 / 25 / °21 طول شرق جرينيتش، وعلى بعد كيلومتر تقريباً جنوب شرق قصر قيرانقيدي، وبعد إقامة خمسة أيام استراحت خلالها الحيوانات وتعرف رجال القافلة على المناطق المجاورة، واصلت القافلة رحلتها فوصلت بئر بوسالمة (الآن بزيما) بعد أن قطعت ما يزيد على المائة كيلومتر عبر سرير، مضجر ومليء بالأحجار.

وكان رولفس يجهل وجود واحة بزيما ولم يخف دهشته لدى عثوره على واحة مزدهرة غنية بآبار المياه العذبة، وتقع على سفح سلسلة صغيرة من الجبال (جبل بوسيما الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر 388 متراً، وعلى ضفاف بحيرة مالحة، وأكد موقعها الجغرافي بـ 5 / 42 / 11 /°25 عرض شمال و15 / °22 طول شرق جرينيتش وعدّل حسنين بك هذه الأرقام بـ 11 / 58 / °24 عرض شمال و 46 / 5 / °22 طول شرق، (قبل هذا التعديل بالإجماع).

وأبدى رولفس بعض الملاحظات على الأرض فقال إنها مكسوة بنوع من مقذوفات البراكين، وهذا خطأ لأن الأحجار التي خالها بركانية ليست سوى أحجار جيرية غنية بالحديد والمنغنيس وتبدو للوهلة الأولى أنها مواد بركانية كما حدث معنا.

وغادر رولفس بزيما متجهاً إلى الكفرة التي كان يعتبرها تبعد عن بزيما بنفس المسافة التي تبعد بها تازربو عن بزيما وذلك في الاتجاه الجنوبي الشرقي تاركاً إلى يمينه جبلاً صغيراً أسود منعزلاً يطلق عليه اسم غور زيل العبد، واجتاز عدداً من الحطايا الرملية ماراً إلى اليسار من سلسلة جبل النار التي يصفها بأنها كبيرة وتقع في الاتجاه الشرقي الغربي، إلا أن هذه الجبال ليست في الواقع سوى سلسلة من القارات أو التلال المتشابكة تتجه من الشرق إلى الغرب والشمال الغربي، ويذكر الرحالة أنه عثر في الرمال على قطع صوان ذات مصدر بركاني إلا أنه لا يؤكد ونحن ننفيه بالكامل كما سبق وذكرنا بأن الأمر لا يتعلق بتكوينات بركانية وإنما نتيجة لتآكل السطح القديم كما يؤكد الكولونيل دي اغوسطيني[1].

تقع اربنها (ربيانة) وفقاً لما يؤكده رولفس إلى جانب جبل النار، وتحدد خارطة حكومة برقة موقعها إلى الغرب من السلسلة الجبلية[2]، هذا في حين نعتقد أنها تقع إلى الجنوب الغربي كما تأكدنا من ذلك لمرورنا من فوقها بالطائرة مرّتين، ويضيف رولفس أنه من الممكن رؤية جبال سرهن من أعلى الجبل نفسه، وهي تقع على بعد يومين إلى الجنوب من واحة سرهن (الزيغن) ومن المحتمل أنه يشير إلى جبل الهوايش الذي يقع شمال الكفرة ويمتد من الجنوب إلى الشرق في اتجاه الشمال الغربي.

ويرى رولفس أن تلال الرمال التي اجتازها لا تتجه إلى ناحية معيّنة، إلا أن الدراسات التي قام بها طيراننا وملاحظات المؤلف الذي حلّق فوق المنطقة تؤكد أن حزام التلال التي تقطع المنطقة إلى الجنوب من الزيغن ـ تازربو ـ بزيما تتجه جنوب

1 ـ دي اغوسطيني ـ معلومات عن منطقة الكفرة ـ حكومة برقة 1927 بنغازي.

2 ـ برقة وسرت وأراضيها الخلفية، خارطة قياس 1:2000000. مكتب الأبحاث بحكومة برقة، اكتوبر 1929.

شرق وشمال غرب، ولا شك أن الإثنين وخمسين عاماً التي تلت رحلة رولفس وجبروت رياح الصحراء قادرة على إحداث تغييرات جذرية وعميقة في المنطقة.

ونتتبع المستكشف الألماني في رحلته إلى الكفرة وننقل فيما يلي فقرة وصفية للمنطقة كتبها رولفس وندرجها بالكامل:

«إلى الشمال من غور الهواري (الهوارية) الذي يعتبر امتداداً لجبل النار مثل بقية الجبال الصغيرة المعزولة، تدخل إلى منطقة تتحول فيها التلال إلى تموجات رملية كبيرة مستوية متماسكة، وأخيراً يبرز من جديد السرير بأرضه الحصوية وتبرز منه تلك الجبال الصغيرة التي ظلت واقفة».

في إمكان القارئ أن يأخذ فكرة دقيقة عن هذه المنطقة المواجهة للهواري عن طريق الصور المنشورة في الكتاب وقد غدت تاريخية بعد القتال المظفر الذي خاضته قواتنا ضد قوات الزوية.

وواصلت القافلة يوم 13 أغسطس رحلتها في الاتجاه الجنوبي الشرقي إلى أن وصلت طرف واحدة الهواويرى التي اعتبرها رولفس الزاوية القصوى للجانب الشمالي الغربي لكبابو (الكفرة) في حين أنها تمثل الطرف الأقصى في الاتجاه الشمالي الشرقي وحدد في خريطته التي وضعها لأرخبيل الكفرة، موقع واحة الهواويري في مكانها الحقيقي.

ومن المهم الملاحظة أن هذه الواحة، في عهد رولفس كانت متصلة بواحة الهواري في الاتجاه الجنوبي الغربي بدون انقطاع بحيث كانت الواحتان تعتبران واحة واحدة تكون حاجزاً أخضر يراه القادم من الشمال في طريقه إلى الكفرة، أما الآن فتصل بين الواحتين أرض عارية تبلغ النصف كيلومتر تنتشر فيها مرتفعات صغيرة وأحجار ربما جاءت بها الرياح..

وتجمع الناس من القرى والواحات القريبة لتهديد الرحالة المسكين[*] إلا أن القافلة واصلت سيرها عن طريق سهل به قارات وجبال صغيرة أطلق عليها رولفس اسم سلسلة جبال واتجه نحو بويما (بزيما) حيث أقام معسكره في موقع أطلق عليه العرب فيما بعد اسم قارة النصراني، وهي وفقاً لملاحظات حسنين بك تقع على 61 / 23 / °23 طول شرقي و8 / 13 / °24 عرض شمالي، وقد عدّل حسنين بك التحديد الجغرافي الذي وضعه رولفس ووجد خطأ يقارب الأربعين كيلومتر في الجنوب الشرقي. وكتب رولفس عن هذه المنطقة فقال: «كانت حدود الأفق في الاتجاه الشمالي تحددها القمة التي تفصل بين الهواري والهواويرى في القسم الجنوبي من كبابو (الكفرة) ويمتد إلى الجنوب حتى الجبال الجنوبية مرعى إبل غني بالنباتات وأن الجانب الجنوبي لهذا المرعى وبقايا قرية تبوية تكون في مجموعها قيمة تاريخية».

القمة التي يتحدث عنها رولفس لا أثر لها اليوم على الأقل حيث تمتد ما بين الموقعين المذكورين ومجموعة الواحات الجنوبية، منطقة منبسطة تتخللها جبال صغيرة ومرتفعات حجرية صغيرة وقارات صغيرة شبيهة جداً بالمنطقة الشمالية

* ـ كان رولفس بدون شك طليعة للاستعمار وعميلاً من عملائه وكانت رحلاته الافريقية من أجل جمع المعلومات التي تفيد الدول الاستعمارية المتربصة والطامعة في الاستيلاء على ما تبقى من أراض حرة في أفريقيا وكان وثيق الصلة بإيطاليا ودوائرها الاستعمارية وبعث في منتصف عام 1894 ـ تقريراً إلى كريسبي رئيس وزراء ايطاليا حول أوضاع ليبيا وشجعه على احتلالها وبعث من بنغازي إلى مجلة المستكشف الإيطالية رسالة نشرتها في عددها الصادر في يناير 1880 لفت فيها نظر إيطاليا إلى المنطقة الواقعة شمال توكره حيث تبدأ طبيعة خضراء شبيهة بالأراضي الإيطالية مائة في المائة وأضاف: «يجب على إيطاليا أن تستعيد هذه الأرض وأنا لا أفهم لماذا إيطاليا لم تتشدد أكثر في المطالبة بحقوقها في طرابلس وسوف أبرهن لكم. أن من يملك تلك الأرض سيكون سيداً للسودان، وامتلاك تونس، حسب رأي رولفس لا يساوي عشر قيمة طرابلس» واستند الاستعماريون الإيطاليون على كلام رولفس للضغط على الحكومة الإيطالية ودفعها إلى احتلال ليبيا، ومن هنا ندرك أن حذر الليبيين من الرحالة الأوربيين والشك في مقاصدهم كان له ما يبرّره.

المترجم

السابقة لقارة الهوارية التي أسهب رولفس في ذكرها في الفقرة التي نقلناها، أما مراعي الإبل المزدهرة فقد غطتها الرمال وتحوّلت إلى بساتين ومزارع قصب وأصبحت قبيلة الزوية وسكان الكفرة الآخرون يرسلون إبلهم للرعي في تازربو في حين يطعمون شعيراً للقلة الباقية من الإبل في الكفرة، وتزايد ترصد الزوية لقافلة رولفس مدفوعين من السنوسية وقد أصبح المعسكر غير آمن بعد أن تعرّضت القافلة لمختلف التهجمات واضطر رولفس أن ينقذ حياته من موت مؤكد ولجأ مع رفقائه إلى الزرق حيث وصلهم خبر نهب المعسكر وبعثرة أجهزته الفنية، ومن هنا توجهت القافلة الصغيرة إلى الجوف، تلافياً للأخطاء التي كانت تتعرّض لها، وقد استضيف رولفس ورفقاؤه ووضع تحت تصرّفهم كوخ كبير يبعد سبعة أو ثمانية كيلومترات (خمسة عشر حسب قول رولفس) عن الجوف، وبعد فترة تناوبت فيها الوعود والذعر وصل إلى الكفرة قادماً من الجغبوب سيدي حسن حاملاً معه رسالة من السيد المهدي توصي بمساعدة الرحالة وتوفير الراحة والأمن لهم(*). ومن المفيد أن نضيف أنه لم تتوفر في الجوف آنذاك مساكن، وقد شيّدت التاج بعد انتقال القيادة السنوسية إليها وبناء المساكن لاتباع الطريقة، والمرتفع الحجري الذي شيّدت فوقه التاج لا تنبت فيه نخلة ولا شجرة.

---

* ـ من المعلوم ان جميع الرحالة الذين توغلوا في الصحراء الليبية أو تجوّلوا في ليبيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانوا يتحصلون مسبقاً على موافقة السلطات المحلية وحمايتها، وان ادعاء المؤلف بأن رولفس ورفاقه تعرضوا للمضايقة والتهديد ادعاء بعيد عن الصحة، ومغرض وقد تعوّد بعض الرحالة على تضخيم الأخطار التي يواجهونها من أجل الاثارة وزيادة الاهتمام، ويعترف رولفس ان السيد المهدي ارسل مندوباً من الجغبوب يحمل رسالة تدعو إلى مساعدته وتأمين أمنه (نشك ان تكون الرسالة من السيد المهدي وقد تكون من أحد الأخوان السنوسية نزولاً لرجاء السلطات التركية) ولا شك ان هذه التوصية ارسلت باعتبار ان رولفس ورفاقه كانوا أصحاب رسالة علمية ولم يكن أحد يعلم أنهم طلائع شر واغتصاب، أما منع رولفس من زيارة الزاوية فهو أمر طبيعي حيث لا يسمح بزيارتها لغير المسلمين.

المترجم

قضى رولفس ورفاقه أحد عشر يوماً في التاج قضوها في التجوّل حول موقع إقامتهم ولم يسمح لهم بزيارة زاوية الاستاذ، وشرعت القافلة في طريق العودة، فحطت مساء 27 سبتمبر خارج نخيل الهوارى فوق مرتفع يسيطر على ما حوله من أراضٍ. ومن الهوارى بدأت الرحلة عبر الصحراء على نفس الطريق التي سلكتها القافلة من بزيما وتازربو.

وقبل أن يشير بإيجاز إلى أحداث رحلة العودة، كرس رولفس فصلاً لإعطاء صورة كاملة للكفرة، ويقدم لأول مرّة رؤية بانورامية لهذه المنطقة الشاسعة مع سلسلة من الاعتبارات التي تستحق الدراسة والتعقيب.

لنترك جانباً الوضع الفلكي لكامل المجموعة الذي حدّده رولفس وستيكر بصورة لا تخلو من الخطأ، بسبب عدم دقّة الأجهزة أولاً وفقدها فيما بعد، إلا أنه يجب أن نعترف بأن العالم الألماني قد وصف الصحراء في طريق ذهابه بأنها أرض مسطحة إلا أنه صحّح خطأه مؤكداً أن مستوى الأرض يستمر في الارتفاع من الشمال إلى الجنوب إلى أن يصل الفارق بين تازربو والكفرة بحوالي مئة وخمسين متراً، ويضيف أنه من المحتمل أن يستمر الارتفاع تدريجياً نحو الجنوب، وقد أكد حسنين بك هذا التصور بشكل قاطع.

ويؤكد رولفس أن التلال التي تحمي مدخل الكفرة من الشمال لا يتجاوز ارتفاعها ارتفاع تازربو والزيغن، وقد أيّدت كلامه الملاحظات الحديثة التي أكدت ما كان تنبّأ به رولفس من أن طريق جالو ـ الزيغن صالحة للسفر وجيدة، إلا أنه أخطأ عندما قال إنه لا توجد طريق من الكفرة إلى الجغبوب بسبب وجود سلسلة التلال الرملية فقد قامت روزيتا فوربس بالسفر من الكفرة إلى الجغبوب باتباع طريق الهوارى ـ بئر الداكار ـ حطية المحمصة ـ بئر بوسلامة ـ الجغبوب.

نتفق على مجمل ملاحظات رولفس إلا اننا لا نقر قوله بأن الأرض في منطقة

الجبال طبيعتها بركانية وقد نفى دي أغوسطيني أيضاً ذلك، وقال إن المساحة والمستوى والقشرة البادية لا تدل على أنها بركانية وإنما ناتجة عن تآكل مسطح الأرض القديمة. وقد قدم رولفس المعلومات التالية حول طبيعة الأرض:

«تتكون أرض الواحة في الجنوب والشمال من رمال كلسية صلصالية في الوقت الذي تستند فيه السلاسل البارزة إلى الخارج، على أرض رملية تظهر على مساحة الجبال الواقعة في جنوب كبابو، وتمتد فوق الرمال طبقة جيرية وتغطي الجميع كتلات من طبيعة الحمم، ولا توجد في أي مكان من الكفرة آثار لمتحجرات قاطعة السلاسل والجبال جميعها طباقية وتبدو لمن يراها كأن الأرض التي حولها قد أزالها عنف المياه او الرياح وأن السلاسل وبقايا الجبال ظلت واقفة كنقاط إشارة، وجميعها تتساوى في الارتفاع أي لا توجد قمم مسيطرة، إلا أن الارتفاع يزداد تدريجياً في اتجاه الجنوب».

نتفق بصورة كبيرة مع رولفس في ملاحظاته، إلا أننا نكرّر رفضنا لقوله بأن طبيعة الأرض في منطقة الجبال بركانية، ولاحظ دي اغوسطيني بهذا الخصوص بأن المساحة والمستوى المشترك والقشرة الظاهرة لا تدل على أنها من أصل بركاني وإنما نتجت من تآكل الأرض المرتفعة القديمة.

هذه هي سلسلة الخطوط والمجموعات الجبلية التي تمتد شمال الكفرة في شكل قوس بيضاوي (جبل الفضيل ـ جبل الهوايش ـ جبل النار) وهذا هو ما يلاحظ في الأفق على طول الطريق من الكفرة إلى السارة وتكرو وواقيانقا.

وفيما يتعلّق بالمياه في منطقة الكفرة، يلاحظ رولفس أنه لا توجد مياه جارية في أي من الواحات وإنما توجد مياه جوفية غزيرة صالحة للشرب قريبة من سطح الأرض ومع أن رولفس لا يتمسك بالنظرية القديمة القائلة بأن الواحات الحالية كانت قديماً بحيرات ومستنقعات كما يبدو في الخرائط

القديمة[1] (Lycomedispadus, Meurtis Palus, Laccipalus) والتي تتطابق بصورة عامة مع الكفرة وتازربو والزيغن، إلا أنه يعترف بوجود أصل مستنقعي قديم للمنطقة ويستند في نظريته على أن ربيانه وبزيما تتخللهما حتى الآن قطع من المستنقعات وأن تازربو والكفرة توجد بها مستنقعات كبيرة ومساحات كبيرة من نباتات البحيرات، ولم يستطع رولفس تفسير وجود المياه بغزارة في المنطقة وأكثرها عذبة، ويفترض أن هذه المياه تصل المنطقة عن طريق جوفي من الجنوب، وفي الغالب من واقيانقا حيث تكثر الأمطار وتتبع الانحناء الطبيعي للأراضي الصحراوية، ولا نستطيع نحن إضافة معلومات أخرى إلا أننا على سبيل العلم نلاحظ أنه لا توجد نقطة مياه واحدة في المنطقة الممتدة من بئر بوالطفل جنوباً وعلى مسافة اكثر من 350 كيلومتراً وعلى جبهة عريضة بصورة ملحوظة، في حين توجد المياه بغزارة في الزيغن وتازربو التي تفصل بينهما مسافة ثمانين كيلومتراً، وفي بئر داكار الذي يبعد خمسين كيلومتراً عن الزيغن والذي يوجد على نفس خط العرض، الأمر الذي يبعث على الاعتقاد أن المياه تتجه نحو غرب ـ شرق بدلاً من جنوب ـ شمال.

وقبل أن يتحدث عن الزيغن، التي لم يرها وإنما استقى المعلومات عنها من المواطنين، يقدر رولفس مساحة واحات أرخبيل الكفرة بـ 17818 كيلومتراً مربعاً، وهو تقدير تشوبه بعض المبالغة، وقد ذكر ضابط الصف الفرنسي لابيير الذي كان أسيراً بالكفرة ما بين عامي 1918 - 1919 ان رولفس بالغ في تقدير مساحة المنطقة ويعتقد أنها أقل من ذلك، ونحن نرى أن المساحة أقل من ذلك، وحيث أن التقدير ليس من الأمور السهلة فنلجأ إلى عدد النخيل التقريبي وهي

1 ـ في دراسة دقيقة للكولونيل دي اغوسطيني (حكومة برقة ـ قسم الأبحاث، النشرة الجغرافية رقم 11 ديسمبر 1930) بحث الافتراضات الكثيرة في العثور على الكفرة في أي منطقة من المناطق التي وصفها الجغرافيون القدماء ويتوقف بصورة خاصة عند آخر اعمال الجغرافي الانكليزي دكتور ج. بول J. Ball مدير Desert Survey Of Egypt ووفقاً لوجهة نظر العالم الإنكليزي فإن الكفرة قد تكون المستنقعات التي ارتبطت بـ (Chelonitides Pàludes) أو (Chelomedae Perludes) كما ذكر في الخارطة، والتي =

التي تحدد الواحات نفسها، وقد قدّر رولفس عدد نخيل الكفرة بمليون نخلة ويضيف بأن جميع المنطقة غنية بالمياه وتغطيها الخضرة بالكامل وأن هذه الخضرة في معظمها مراع للإبل ويقول أيضاً أنه لا يوجد داخل هذه الواحات شبر واحد لا يكسوه النبات.

ويلجأ دي لابيير بدوره إلى الأرقام ليعرب عن أفكاره فيقول إن تازربو غنية بالنخيل وأن أصغر مجموعة من النخيل يصل عددها إلى عشرين ألف نخلة وتتكون واحة تازربو من مجموعات عديدة من النخيل[1]، ويؤكد لابيير أنه توجد في بزيما ما بين المائتين والثلثمائة الف نخلة، ويوجد بالكفرة على الأقل مليون نخلة ويبدو من الرسم البياني الذي وضعه للمنطقة أن الفراغات الحالية بين الواحات لم تكن موجودة وأن النخيل من بزيما يلتف حول الجوف والتاج ويحتل كامل التجويف دون انقطاع..

= يحددها طولوميو على خط العرض 20 والطول 30 / 11 / °49 غرب خط الطول الذي حدّدت عليه الإسكندرية، وننقل فيما يلي النقاط الهامة في الدراسة:

«يبدأ بالإشارة إلى طريقة طولوميو في تحديد مراكز ليبيا الداخلية المختلفة وتقدير المسافة إلى الغرب وجنوب الإسكندرية على أساس طرق المسافرين وتحويل هذه المسافة إلى درجات خط العرض ثم يطرح هذه الأرقام من النتائج التي وضعها للإسكندرية (خط عرض 31 وخط طول 30 ـ °60)، ويلاحظ بول خطأ طولوميو في تقدير خطوط العرض والطول الاستوائية حيث اعتبر طول الدرجة 500 مرحلة (78.700 كلم تقريباً) بدلاً من 700 كما هي في الواقع أي ان النسبة 7 إلى 5.

وحيث ان درجات الاسكندرية ودرجات (Cheldnitides Paludes) تختلف عن بعضهما بقدر °11 درجة عرض و°11 - °30 طول ويخفض هذا الفارق وفقاً للنسبة المذكورة، إلى °7 درجات و52 عرض و°8 درجات و12 طول هذه هي القيم الحقيقية التي يجب طرحها من موقع الإسكندرية المعترف به اليوم (عرض 12 - °31 وطول °29 - °53) وإذا أردنا الحصول على موقع (Chelonitides Paludes) وفقاً لطولوميو فتكون النتيجة كالآتي: عرض °23 ـ °30 ـ طول °21 ـ °41 ويلاحظ «بول» أن العرض يقترب مما حدّده حسنين بك بالنسبة للتاج (الكفرة) (°24 ـ °14) والطول بالنسبة لتازربو (الواقعة غرب الكفره) كما حدده رولفس (°21 ـ °25).

(1) لاحظ الرائد توريللي قائد القوات المصفحة الطرابلسية التي جاءت إلى تازربو في شهر يناير من العام الجاري لحماية القوات الصحراوية الزاحفة على الكفرة لاحظ ان تازربو تتكون من عشر واحات صغيرة تفصلها عن بعضها بضعة كيلومترات من الأراضي الرملية والسباخ، وقدر عدد نخيلها بخمسين ألف نخلة مثمرة (انظر النشرة الجغرافية لحكومة برقة ـ قسم الدراسات).

ومن المعلوم أن الواحات الصحراوية يتضاءل عددها كل يوم نتيجة لهجوم الرمال العنيف المستمر ونحن لا نتفق مع لابيير في تقديراته حيث برهن المكتشفون الذين زاروا المنطقة بعده على أن الواحات كانت منفصلة عن بعضها الأمر الذي يقلل من عدد النخيل، وقدَّر بريتسي عدد النخيل ببضعة مئات الآلاف ونحن نقدر عدد هذا النخيل بمائة الف نخلة مثمرة داخل الواحات، أما المراعي التي تحدث عنها رولفس فلا يوجد لها أثر اليوم ولم يكن لها وجود في فترة زيارة لابيير حيث ذكر أنه لا توجد مراعي للإبل.

ويقول الدكتور بريتسي في هذا الصدد: «الخيول قليلة ومهملة بسبب قلّة العلف والحمير كثيرة وهي تستجلب من السودان والضأن أيضاً قليلة وتطعم بنوى البلح المهروس».

لا نرى داعياً للاستمرار في سرد هذه التفاصيل عن جميع نباتات الكفره، وأود أن أشير فقط إلى شجرة الزيتون التي تنمو بصورة تلقائية وتنتج حبات زيتون صغيرة يستخرج منها الزيت بطريقة بدائية وهو زيت كثيف أخضر اللون لا يستطيع الأوربي أكله بسبب ارتفاع حموضته، وينمو التين بصورة جيدة وكذلك الخوخ والعنب والرمان التي توجد منها بضعة مئات من الأشجار، هناك البساتين التي تزرع فيها الخضراوات والشعير والقصب ويتولى العرب زراعتها.

ومن الطبيعي أن الفارق بين وصف رولفس للمنطقة والواقع الحالي يعود إلى غزو الرمال ونقص اليد العاملة المسخرة وانكماش المساحات المزروعة، وقد فضل سكان الكفرة وما زالوا يفضلون التضحية بالمراعي لصالح مزروعات أكثر ضرورة وفائدة.

وأخيراً نصل إلى منطقة الزيغن، فقد كتب الدكتور رولفس استناداً على المعلومات التي جمعها ما يلي:

«لا توجد تمور في سرهن (زيغن) غير أنه في إمكانها الحصول عليها، فتوجد بها

وفقاً للروايات، مياه لذيذة ومراعٍ جيدة للإبل جعلت من الزيغن نقطة للقوافل القادمة من الجنوب وبالعكس، وبالنظر أن الكفرة تحتوي على أراض عذراء صالحة لزراعة النخيل المثمر، فإن السنوسيين والزوية لم يهتموا بزراعتها في سرهن».

ويتضح من رسومات رولفس، الملحقة بكتابه، أن الزيغن واحة غير مثمرة لا يوجد بها نخيلاً أو نباتاً، وتضطر القوافل العابرة إلى نقل الشعير معها لإطعام الإبل، كما لا يوجد أي أثر للمراعي التي تحدث عنها رولفس، وذكر لابيير الذي مرّ بالزيغن يوم 16 إبريل 1919 أنه وجد المنطقة تختلف تماماً عن المنطقة التي تحدّث عنها رولفس وهكذا وصفها بصورة موجزة: (تبدو الزيغن كوادٍ لا توجد به سوى بعض النخيل وجذوع نباتات جافة).

أما روزيتا فوربس فقد تركت الزيغن إلى المغرب وهي في طريق عودتها وفضلت طريق بئر داكار الواقعة في أقصى شرق الوادي باعتبارها أفضل الطرق المؤدية إلى الجغبوب، وذكر حسنين بك غزارة المياه بالمنطقة فقط، وقد كان هناك بعض النخيل بالقرب من الآبار حسب قول المواطنين، قد اكتسحتها الرمال والدليل على ذلك وجود نصف نخلة جافة في طريقها للتحجر وقد تمّ أسر الدكتور بريتسي بقربها.

ويذكر الدكتور بريتسي في حديثه عن المنطقة ما يلي:

«منخفض وادي الزيغن مليء بالمرتفعات الرملية التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة امتار وقد تكوّنت من تجمع الرمال حول جذوع الأشجار وبقايا نباتات الحطايا، ومنظرها صحراوياً بحتاً ويبدو قاحلاً مع ازدياد الضوء بعد شروق الشمس في الصباح».

والآن بعد أن ألقينا نظرة سريعة على خصائص الكفرة وطبيعتها على ضوء ما كتبه الرحالة وملاحظات المؤلف مباشرة، لا ندّعي أننا استطعنا تقديم صورة شاملة للمنطقة وإنما أعطينا القارئ فكرة أمينة عنها، وننتقل الآن إلى الحديث عن

سكان الكفرة قبل التعرّض للحملة وأحداثها لا يتردد الدكتور رولفس في حديثه عن سكان الكفرة بأن الواحة كانت تسكنها في الزمن القديم قبائل الجرامانت ويضيف قائلاً:

«إن المباني المكتشفة في بزيما تبعث على الاعتقاد أن شعباً قديماً سكن المنطقة قبل التبو والتيدا، ودليل على ذلك فإني خلال نزهة قمت بها في جنوب بزيما، عثرت على رأس رمح صواني منقوش ببراعة وقد ضاع مني، مع الأسف، في عملية السلب التي واجهناها، ومع الأسف الشديد فقد استحال علينا جمع أية معلومات عن التبو والتيدا بسبب وضعنا السيئ في الكفرة، ولم أستطع أن أعرف من الزوية إذا كان التبو يأتون إلى كبابو (الكفرة) وأربنها بصورة مؤقتة أم أنهم قد استقروا في إحدى الواحات من جديد».

إن المعلومات التي يقدّمها لنا رولفس ضنينة ولا تكتسب أهمية كبيرة حتى ولو أضفنا تقديره لعدد السكان الذين يبلغ عددهم حسب قوله بأكثر من سبعمائة نسمة في الواحات الداخلية بما فيهم العبيد، ولا شك أن اعترافه بعجزه عن إعطاء معلومات أوفر بسبب وضعه، تجرد الأرقام التي ذكرها من أية أهمية أو قيمة..

وقد قدّم لنا لابيير معلومات أكثر حول سكان الكفرة ننقلها فيما يلي بالكامل رغم ما تحمله من شوفينية وهي طبيعة الفرنسيين:

«أغلب السكان من الزوية من قبائل المرابطين البرقاوية والكثير من التبو وبعض المجابرة وعائلات مختلفة من قبائل مصر، ويقدّر عدد سكان الكفرة بما فيهم سكان حطية الهواري بخمسة آلاف نسمة على الأكثر وأن عدد النساء يفوق عدد الرجال ويعتبر التبو المقيمون في الكفرة أكثر تطوراً من أولئك الذين سنحت لي الفرصة برؤيتهم في واو اوزو في المنطقة الواقعة في شمال بارداي. إنهم أناس متحرّرون ويستحقون اهتمامنا وأكثرهم لديهم علاقات بمراكزنا في

أفريقيا الغربية ويقومون في الكفرة بدعاية لصالحنا تحت نظر الإخوان العاجزين عن قمع هذه المظاهر المعادية لهم، وإني أشعر بارتياح إذا ما تحدثت إلى أحدهم، شكراً أيها التبو».

ويحاول لابيير أن يبعد عن السكان الاتهامات التي وجهها إليهم رولفس وذلك على ضوء تجاربه الشخصية والأحداث التي مرّ بها، فيقول:

«لقد لاحظت أن هؤلاء الناس مهذّبون وليسوا بالمتعصبين ولا المخادعين والبرابرة كما وصفهم رولفس، لقد عرفت عائلة من عين صالح، أعتقد من قبيلة أولاد عزّى، تتكوّن من شاب وامرأتين قتل الفرنسيون والدهم بعين صالح وكانت هذه الأسرة في غاية اللطف معي».

حتى قيام بريتسي برحلته لم يكن في الإمكان الحصول على معلومات حول سكان الكفرة فالأرقام التي وضعها حسنين بك ورولفس ولابيير لا تمكننا من الحصول على فكرة إجمالية، وقد حاول دي اغوسطيني أكثر من مرّة في مؤلفه السابق الذكر أن يكون أكثر تقارباً، مشيراً إلى المعلومات التي جمعت من قبل فكتب:

«إن سكان الكفرة ينتمون في الغالب إلى قبيلتي الزوية والتبو ويضاف إليهما مجموعات من قبائل برقاوية مختلفة كالمجابرة والأواجلة والقرعان والبديّات (ايندى) والفزازنة وغيرهم».

ويعتقد أن الزوية يلتقون في النسب مع الحساونة المقيمين بوادي الشاطئ وفقاً لتقاليد مشتركة، ولذلك يمكن اعتبارهم من أصل عربي منحدرين من زغب بني سليم[1] ولا تعرف الأسباب أو الأحداث التي جعلتهم صدقاناً للمغاربة البرقاويين كما هم في الواقع حالياً، إلا أن رابطة القرابة هذه بالمغاربة

1 ـ اكتشف رولفس فيهم السمات السامية، انف منحني، عيون سوداء ونافذة، جبين منخفض، بروز عظمة الخد، شفاه غليظة، شعر طويل أسود، رقبة وجسد طويلان، عضلات قليلة البروز، غياب الاستدارات في الجسد، أيد وأرجل صغيرة.

أصبحت في الواقع رابطة رمزية وخاصة بعد أن ابتعد الزوية عن موطنهم الأصلي واتجهوا إلى الجنوب حيث أصبحت الكفرة واجخرة موطنهما الأساسي.

وكان الزوية إلى وقت قريب معروفين بتمرّدهم على الحكومة ونهبهم للقوافل التي تجتاز الصحراء الليبية والتي كانوا يفرضون عليها في الكفرة أتاوة معلومة.

وكان الزوية في الماضي يسكنون منطقة اجدابيا والأراضي الواقعة ما بين خطي عرض قارة الجلب وقارة التنب تقريباً (إلى شمال القطيفية بقليل) ويبدو أن الزوية شرعوا في مغادرة موطنهم والاتجاه إلى الجنوب قبل مائتي عام. فاستقرّوا أولاً في جخرة حيث غرسوا النخيل الكثير الموجود حالياً وبعض المزروعات الأخرى التي أدخلوها على المنطقة وأصبحت بعد ذلك واحة جخرة قاعدة غزواتهم على التبو المقيمين في الواحات المركزية بالصحراء الليبية التي كان يملكها التبو الذين اتخذوا من تازربو مقراً لسلطانهم وأدّت هذه الغزوات، رغم دفاع التبو الشديد، إلى سيطرة الزوية على المنطقة وتملّكها.

ويبدو أيضاً أن الزوية هم الذين وجهوا الدعوة إلى السنوسيين للانتقال إلى الكفرة ومنحوهم ثلث نخيل الواحة، ومما لا شك فيه أن الزوية باحتكاكهم وتعاونهم مع النظام السنوسي قد اكتسبوا شيئاً من الحضارة وكفوا عن أعمال النهب التي مارسوها على مدى قرون وإن لم تتلاشَ تماماً اليوم»(*).

لقد نقلنا بالكامل الجزء الرئيسي من الفقرة المتعلّقة بالزوية لأهميتها وتركنا جانباً التقسيمات إلى عائلات وبيوت ونشير إلى ما ذكره دي اغوسطيني الذي قدر عدد الزوية المقيمين بالكفرة بـ 1650 نسمة.

ونرى من المفيد أن ننقل بالكامل ما ذكره المؤلف دي اغوسطيني عن قبيلة التبو:

* ـ بعد أن أصبح الزوية من اتباع الطريقة السنوسية عملوا على بث الأمن في الصحراء الليبية ولم يعد أحد يعتدي على القوافل أو المسافرين.

«ان مجموعة التبو تنتمي إلى الأصل الحامي القريب من العناصر الزنجية لغة ولوناً إلا أنها تكتسب بعض المميزات الطبيعية التي تجعلها مستقلة بذاتها داخل الفرع الحامي الشمالي[1]، ويقع المركز الرئيسي لقبيلة التبو في التيبستي، وتمتد تفرعاتهم الكثيرة إلى فزان وبحيرة التشاد واينيدى ووسط الصحراء الليبية حيث اتخذت سلطنتهم تازربو مقراً لها، كما أنهم كانوا يحتلّون أيضاً واحات بزيما وربيانا والهواري والهواويرى وجالو، وهذه الأخيرة كما سبق وذكرنا كانت تشمل الجوف والزرق وبوما وبويمه ويبدو أن قبيلة الجوازي البرقاوية قد هاجمت التبو لأوّل مرة قبل ثلاثة قرون، وكانت هذه القبيلة الأخيرة تقيم في جنوب بنغازي إلى ما قبل قرن ونصف وهي تقيم الآن بالأراضي المصرية[2]، وقد حاول الجوازي الاستقرار في المنطقة إلا أن مقاومة التبو الشديدة الذين فرّوا أمام الجوازي في أول الأمر، ثم عادوا إلى النضال من جديد وأجبروا الجوازي بعد بضع سنوات إلى العودة إلى قواعدهم القديمة، وبعد بضعة عقود من جلاء الجوازي عن المنطقة قام الزوية الأكثر جرأة وقتالية من سابقيهم بمساعدة بعض عناصر من قبيلة الجوابيس المصرية[3]، باحتلال المنطقة والاستقرار فيها لفترة أولية تقارب الأربعين عاماً، كانوا يعودون خلالها بانتظام إلى منطقتهم القديمة لجني ثمار النخيل، وقد استطاع الزوية نشر زراعة النخيل في الواحة وتحسين نوعيتها بجلب أنواع جديدة من النخيل، وقد انسحب التبو أمام الزوية إلا أنهم قاموا بحرب عصابات منتظمة استطاع الزوية التغلّب عليها بفضل حيازتهم للأسلحة النارية التي كان التبو يفتقرون إليها، وقداستسلم التبو للزوية وخضعوا لهم، إلا أن الصلح النهائي تمّ بين الطرفين بصورة نهائية بمسعى من السيد المهدي السنوسي، الذي انتقل إلى الكفرة عام 1895.

---

1 - سرجي - انثروبولوجية العنصر الحامي - ص. 347 وما يليها.

2 - دي اغوسطيني - سكان برقة - النص الإيطالي، ص. 26 - 27.

3 - تخلفت بعض العناصر من هذه القبيلة في الكفره وتحصلوا على جزء من الأراضي والنخيل، إلا أنهم غادروا المنطقة بعد بضعة سنوات وعادوا إلى الأراضي المصرية، بسبب استمرار الخلافات بين التبو والزوية، ويبدو أن أسماء طالب وطليّب والزرق هي أسماء بعض عناصر الجوازي.

ويضاف إلى هاتين القبيلتين الرئيسيتين (اللتين تعتبران الأكثر أهمية عدداً بالنسبة للقبائل الأخرى التي تسرّبت في الفترة المعاصرة أو استوردت كرقيق) مجموعات من الطوارق والفزازنة ورقيق من مختلف الأجناس والقبائل تمّ شراؤه في السوق المحلي وفي الأسواق الجنوبية.

ويقدر دي اغوسطيني عدد سكان الواحات الداخلية بـ 3300 نسمة وأكثر من خمسمائة نسمة في الواحات الخارجية، وهذه الأرقام مستقاة من الرحالة ومن المشائخ الوطنيين الذين كانت لديهم علاقات بهذه القبائل البعيدة.

ويقدر الدكتور بريتسي، الذي كان لديه الوقت لدراسة هذا الأمر، الزوية بألف وثمانمائة نسمة ويقلّل من أهمية المجموعات الأخرى، وقد قدّر عدد سكان الواحات الداخلية بـ 3120 نسمة وعدد سكان الواحات الخارجية بـ 400 نسمة.

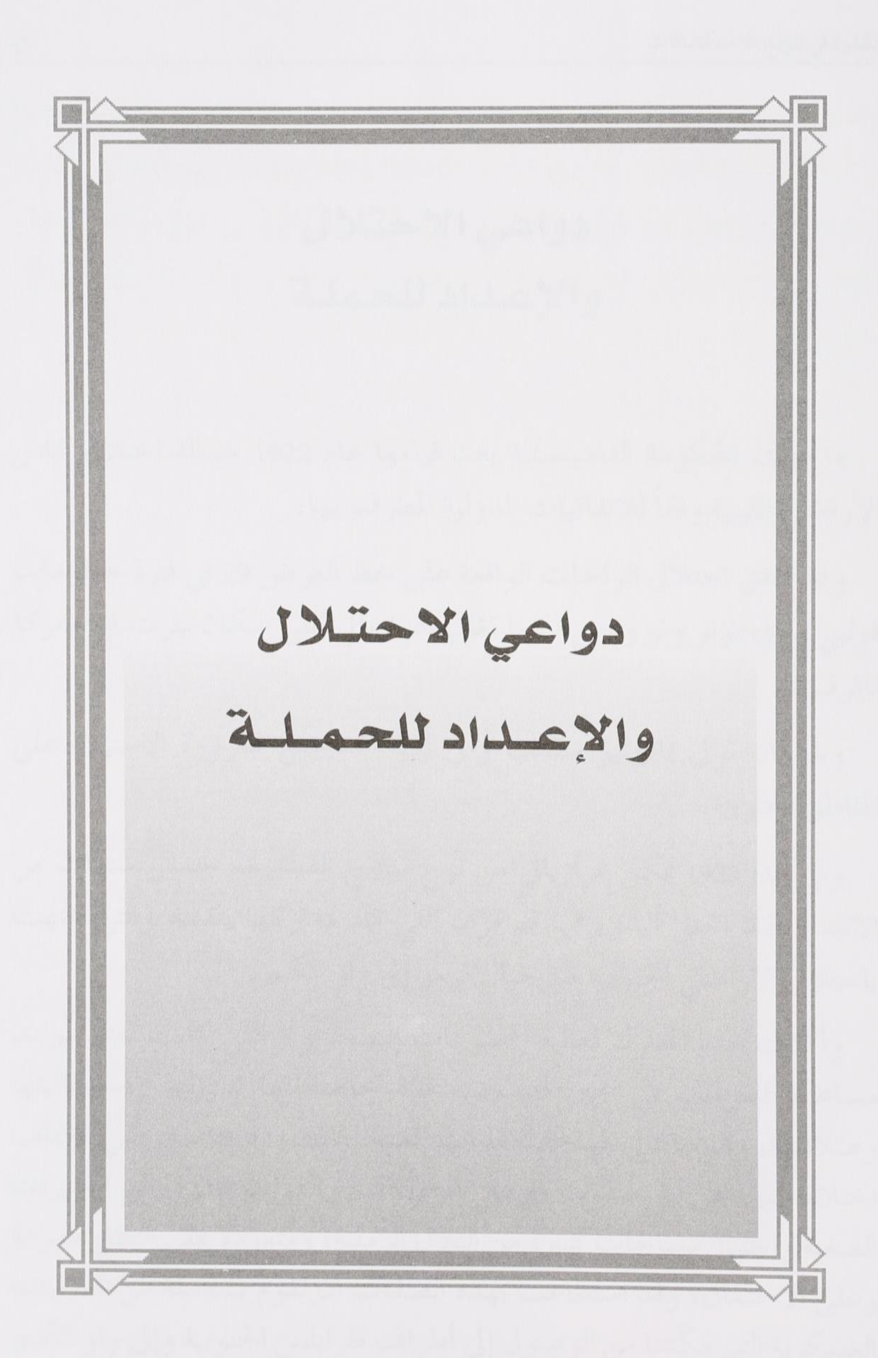
ونحن لا نستطيع الآن تقدير عدد السكان، ففي وقت الاحتلال العسكري كان سكان قرى الواحات قليلين جداً، لأن الرجال الذين اشتركوا في القتال قد فرّوا بعد أن زرعوا الأرض بقتلاهم، كما أن بعض المشائخ فرضوا على أتباعهم اللجوء إلى مصر والسودان خشية أن يفتك بهم الإيطاليون الغازون، وكثير من الفارين لحق بهم رجالنا الصحراويون وأعادوهم إلى مساكنهم، وآخرون عادوا تلقائياً لضرورة البقاء بعد أن علموا أن القوات الإيطالية أبقت على السكان الآمنين وأعادتهم إلى أراضيهم وسمحت لهم باستئناف عملهم وزراعتهم(*).

* ـ لقد أبادت القوات الإيطالية جزءاً كبيراً من سكان الكفرة، لقد استشهد قرابة مائتي رجل في معركة الهواويرى، وقتل كثيرون بعد احتلال الواحة أما الفارون فقد طاردتهم الطائرات والهجانة، أما الطائرات فكانت تقذف القوافل الفارة بالرشاشات والمدافع فتقتل المسافرين بدون تمييز وتقتل الدواب التي تحمل المؤن والأطفال والنساء والعجزة وتترك من تبقى على قيد الحياة ليموت في الصحراء عطشاً، وأما الهجانة فإذا لحقوا بقافلة قتلوا رجالها واستولوا على أرزاقها وقادوا النساء والأطفال إلى الكفرة مثل السبايا، وقد هبّت قوات الحدود المصرية إلى إنقاذ من استطاعت انقاذه، ان مذبحة الكفرة التي اقترفها الإيطاليون ضد أناس عزّل أو فارين ستظل وصمة عار في جبين الاستعمار الإيطالي...

المترجم

وقد يكون في الإمكان بعد مرور بعض الوقت وضع إحصاء تقريبي لسكان الكفرة إلا أنه من الممكن القول منذ الآن أن مجموع سكان الواحات أقل من تقديرات بريتسي لأن الكثير من الذين فرّوا كانوا من الثوار الذين حلّوا ضيوفاً على أهل الكفرة في وقت إقامة بريتسي وأنهم بالطبع لن يعودوا إليها، ونعتقد أن عدد السكان سوف لن يتجاوز الألفين.

وسنعود إلى هذا الموضوع أكثر من مرة بعد تجميع المعلومات وتقديم التفاصيل التي نعتبرها ضرورية لتفهم أكثر لمشكلة الصحراء.



دواعي الاحتلال
والإعداد للحملة

دواعي الاحتلال والإعداد للحملة

واجهت الحكومة الفاشيستية بعد قيامها عام 1922 مسألة احتلال كامل الأراضي الليبية وفقاً للاتفاقيات الدولية المعترف بها.

وقد تحقق احتلال الواحات الواقعة على خط العرض 29 في فترة حكومات فولبي ودي بونو وتيروتسي، كما تغلب غرازياني على سكان سرت في معركة تاقرفت.

وبعد أن تولى بادوليو منصب والي ليبيا أكد على ضرورة الاستيلاء على المناطق الجنوبية.

وفي عام 1929 تمكن غرازياني من نزع سلاح القبلة بعد خمس سنوات من الاعداد فقد احتل الشويرف ثم فزان التي قاد معاركها بنفسه والتي انتهت باحتلال الأراضي الجنوبية من جبال تومو إلى واو الكبير.

وأكدت هذه المعارك فعالية المجموعات الصحراوية التي كانت تعتبر قوات مساعدة للفرسان في حين أصبحت قوة خاصة لها مميزاتها واستقلاليتها وصلابتها، وهي بالتالي صالحة لعمليات الصحراء بصورة خاصة، التي تختلف اختلافاً كبيراً عن أية عمليات حربية أخرى، فهذه القوات قادرة على المسيرات الصعبة واجتياز مساحات كبيرة من التلال الرملية، ومتعودة على التنقل بسرعة وعلى الاحتمال، وقد استطاعت بهذه الصفات أن تقوم بسلسلة من العمليات العسكرية التي مكّنتنا من الوصول إلى أطراف طرابلس الجنوبية وإلى واو الكبير

القاصي معقل الثوار الغامض والمحرم والحارس المتقدم للسنوسية التي كانت من الكفرة تمسك بشبكتها السامة المترامية.

وبعد أن تمكنا من السيطرة على طرابلس وتنظيمها ظل المشكل البرقاوي يتطلب الحل والتصفية في أسرع وقت كي لا يتحول إلى حالة شاذة ومهينة لنا.

وقد أرسلت الحكومة المركزية غرازياني إلى برقة في الوقت الذي كانت تتخبط في تشنجات هزلية للصلح مع عمر المختار الذي كان يرمي من ورائه إلى تعزيز قواته وتموينها على حسابنا، وأن يضعفنا عسكرياً ثم يخوننا، وكان غرازياني صغيراً في السن، إلا أنّه خبير بأسرار السياسة الشرقية وحرب المستعمرات ومستعد لتحمل أكبر مسئوليات..

وصل غرازياني إلى بنغازي في نهاية شهر مارس 1930 بصفته نائباً للوالي في برقة، وقد سبقته شهرته كقائد قدير وبارع، واعتقد رواد المقاهي الاستراتيجيين للحظة أنه سيواجه المستعمرة بأكملها بالحديد والنار. وقد دلّت التجارب الاستعمارية على أن أية خطة مرتجلة لا تنجح في مناطق تتطلب الحساب والحذر والمنطق والتنظيم، وقد درس غرازياني الوضع في برقة بهدوء واستبعد أي حل يقوم علي التراجع، واستعد لمواجهة المشكل البرقاوي بكامله والقضاء بصورة نهائية على الثوار الطرابلسيين الذين تدفقوا على الكفرة بعد الدروس المريرة التي تلقوها في طرابلس، وأخيراً تشتيت العدو الأكبر المخيف أي السنوسية بصورة نهائية.

وقد تمّ اتخاذ سلسلة من الإجراءات الاستثنائية كإغلاق الزوايا السنوسية وتجميع القبائل البدوية في مواقع محدّدة حيث يتوفر الرعي والحراثة بالقرب من الساحل، وحيث تتوفر المصادر الطبيعية وتسهل مراقبتها من قبل قواتنا، وقد قلّلت هذه الاجراءات في أول الأمر من التعاون بين السكان الخاضعين وأدوار الثوار، ثم قضت عليه نهائياً، وقامت بعد ذلك قواتنا بملاحقة الثوار في مناطق

الجبل الأخضر الصعبة والعامرة بالغابات والوديان العميقة التي تغطيها الأشجار والتي تصعب رؤيتها حتى من الجو، ولم يعد الثوار بعد هذه العمليات يشكلون خطراً حقيقياً حتى وإن ظل بضعة مئات من الرجال المسلحين بقيادة الشيخ عمر المختار خادم ووكيل السنوسية والذين يواجهون الموت بفعل ضربات قواتنا المتحرّكة.

إلا أن أمر احتلال الواحات الصحراوية البعيدة والتوغل جنوباً حتى واحة الكفرة الأسطورية عاصمة السلطة السنوسية الزمنية ومركزها الرسمي، وهي المحرّضة على أية ثورة ضد الأوروبيين والمتربّصة باستمرار لمناوئتنا والعمل ضدنا ظل قائماً.

وتقع الكفرة على بعد 900 كلم من الساحل وعلى بعد 600 كلم من جالو اقصى مراكزنا بالصحراء الليبية، الأمر الذي جعلها بعيدة المنال وأن كل من فكّر في احتلالها عسكرياً اعتبر إنساناً خيالياً.

وقد اكتسبت الواحة بسبب ضمّها لقبر السيد المهدي، قدسية باعتبارها مدينة السنوسية المقدسة وأحاطت الصعوبات الطبيعية واحة الكفرة بهالة من الأسطورية والغموض مما دفع على الاعتقاد بأن هذه الواحات الصحراوية لن تطأها أقدام كافر.

وقام غرازياني، منذ أن تولى منصب نائب الحاكم العام في برقة، بسلسلة من الدراسات والإعداد للعملية الكبيرة، كما كانت القيادة الطرابلسية تقوم بدراسات مماثلة، وتمّت الموافقة في آخر شهر نوفمبر الماضي على القيام بالعملية فأتم غراسياني إعداد الوسائل والخدمات التي تتيح التقدم في منطقة قاحلة قاسية وضمان حصول الجنود على وسائل النقل والتمويل والمواد اللازمة ليكونوا في كامل فعاليتهم، وهم بعيدون عن أية قاعدة ثابتة أو مركز تمويني.

وقد قام الرائد لورينزيني ومعه ضابط من الميليشيا الفاشيستية يدعى (الفونسو

كومو) بعملية استطلاع لمجموعة من السيارات المصفحة بحراسة الطائرات وقد استطاع منذ شهر سبتمبر الماضي أن يؤكد إمكانية وصول السيارات العادية والمجهزة تجهيزاً حسناً، إلى منخفض بئر الزيغن الكائن داخل وادي الزيغن على بعد أربعمائة كيلومتر جنوب شرق جالو، وعلى بعد مائتي كيلومتر من مجموعات واحات الكفرة الداخلية.

وأسند الجنرال غرازياني قيادة العمليات إلى الجنرال رونكستي التابع لقوات برقة الذي انتقل إلى أجدابيا منذ يوم 20 نوفمبر ليتولى شخصياً الإعداد الصعب والدقيق.

ولكي نأخذ فكرة عامة عن العمليات في الصحراء فإن القوات المتقدمة عليها أن تصارع ضد المسافات وقسوة الطبيعة وصعوبات الأرض والعطش والجوع، ولا يمكنها أن تعتمد على المصادر المحلية غير المؤكدة والتي يصعب استغلالها باستثناء آبار المياه، التي بالنظر إلى أهميتها وثرائها وقدراتها وأبديتها يجب أن تحسب بدقة واهتمام. والعمليات السوقية في حالات مماثلة تحتل المركز الأول وتتفوق في أهميتها على الاستراتيجية والتكتيك.

ولا شك أن قلة المياه بصورة خاصة، إلى جانب عدم صلاحية مياه آبار كثيرة للشرب واحتمال زيادة الاستهلاك بسبب ارتفاع درجات الحرارة، وهو ما يحدث غالباً في المناطق الصحراوية، وكذلك المياه المفقودة بسبب التبخر العالي والعديد من الأسباب الأخرى، فيجب أن يحسب حساب هذه المشاكل جميعها وتقدّر بدقة وعمق وتواجه بالتغطية الكافية.

وقد وقع الاختيار على اجدابيا لتكون قاعدة الإعداد الرئيسية، حيث تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من البحر الذي يربطها به خط حديدي «ديكوفيلي» مجهّز جيداً، وعلى بعد مائتي كيلومتر من بنغازي.

وقد حشدت في اجدابيا جميع العناصر المختارة لتكوين المجموعات

الصحراوية التي ستشارك في الحملة (برقة لم تعرف من قبل المجموعات الصحراوية وإنما كان لديها مجموعات من الهجانة والأمر يختلف)، كما حشدت كميات كبيرة من المواد التي ستتولى نقلها السيارات وقافلة كبيرة من الإبل التي ستتبع القوات الزاحفة.

وكانت العمليات السوقية تسير بدقة متناهية وبسرعة كبيرة، واعتبرت مدة شهر من الزمن كافية لإتمام الاستعدادات وتجهيز القوة العاملة من خلال عمل عقلاني منظم وسريع، وقد وصل دوق بوليه القائد الثاني للحملة قادماً من طرابلس يقود طائرته الخاصة، وقد استطاع أن يسافر يوم 20 ديسمبر إلى جالو حيث كان يجري العمل لجعلها قاعدة متقدمة.

وعندما تحركت الحملة، ورافقها دوق بوليه والجنرال رويكيتي، كانت مؤلفة على الوجه التالي:

القوة العاملة وتتكوّن من: القوة الصحراوية المؤلفة من مجموعتين، ويقدر عددها بثمانمائة وخمسين بندقية وثمانية رشاشات وقسم مدفعية محمولة على الإبل مع وحدة احتياطية وقرابة مائة رجل من المغاربة على الإبل، والجميع بقيادة الرائد بوزيللي وقد زوّد كل فصيل بمؤونة أربعين يوماً بالإضافة إلى مؤونة أربعين يوماً أخرى تحملها القافلة الكبيرة التي سيأتي ذكرها فيما بعد، وكذلك كمية من المياه تكفي لعشرة أيام ويومين احتياطيين، وبذلك فقد زوّد كل فصيل بمؤونة تكفيه لمدة ثمانين يوماً.

ويلي ذلك مفرزة ضابطية بقيادة الملازم (ماناترتسيو) من أجل الانضباط خلال الرحلة ولإنشاء مركز شرطة في الكفرة، ومفرزة من المهندسين لإنشاء خدمات الراديو تلغرافية بقيادة الملازم (موناكو) ومفرزتان للمياه تابعتان لسلاح الهندسة، وجميع هذه القوات محملة على الإبل وجملتها مع القوات السابق ذكرها أربعون ضابطاً و62 ضابط صف، و175 إيطاليا، وتأتي بعد ذلك

قافلة الإبل بقيادة الرائد «روللي» وتتكوّن من 3500 بعيراً قدّمها السكان ويتولى قيادتها والعناية بها 1500 رجل، وسرية جنود ارتريين لخدمات الحماية والتنظيم والحراسة، وتتبع ذلك القوات الآلية المقرّر وجودها في بئر الزيغن الذي سيصبح القاعدة المتقدمة جداً ومركز القيادة العامة، وتتكوّن هذه الآليات من ثلاث مجموعات من المصفحات بقيادة الرائد لورنزيني، و300 سيارة نقل لحمل الوقود والزيوت للسيارات وللطائرات ونقل الذخيرة وقنابل الطائرات والمؤن الاحتياطية والمواد الصحية والراديو وورش الميدان ومواد مختلفة.

وأسندت قيادتها إلى الكولونيل ماليتي الخبير في شؤون المستعمرات والصحراء، وقد كان قائداً لمنطقة اجدابيا العسكرية.

ويضاف إلى كل ما ذكر سبع عشرة طائرة التحقت على دفعات بالقوات العاملة ومهمتها القيام بالمراقبة وملاحظة تضاريس الأرض، والربط ما بين الوحدات وملاحقة الهاربين بالرشاشات والقنابل، وهي بقيادة الكولونيل «لوردي» قائد قوات برقة الجوية، وشاركت طرابلس في العمليات حيث أرسلت إلى تازربو مجموعة من السيارات المصفحة لحماية الجانب الأيمن للقوات العاملة، ومجموعة صحراوية بقيادة الرائد كامبيني، كلّفت بالاتجاه إلى الكفرة عن طريق بزيما وتازربو.

وكانت هناك سبع طائرات طرابلسية وصلت الزيغن بقصد الانضمام إلى الخمس عشرة طائرة برقاوية لتقوم بعمليات الاستكشاف وإطلاق نيران رشاشاتها من الجو.

إن الأرقام التي ذكرناها تعبّر بصدق عن جدّية الاستعداد لهذه العملية.

وبما أن المياه الغزيرة تتوفّر في جالو، وكذلك في منطقة الزيغن الغنية بالآبار حيث يكفيَ حفر بضعة أمتار في الأرض للحصول على المياه العذبة، الأمر الذي يؤمن نجاح الحملة حتى ولو حدثت مفاجآت لغير صالحنا.

وقطعت القافلة بكاملها المسافة ما بين اجدابيا وجالو في خمسة أيام دون فقد أية دابة وفي نظام تام، وقد شاهدنا رحيل القافلة ثم التحقنا بها جواً مع غرازياني الذي انتقل أكثر من مرّة ما بين بنغازي وأجدابيا لتفقد سير الاستعدادات.

وستغادر القافلة جالو يوم 13 ديسمبر، ومن المتوقع أن تصل الزيغن في غضون عشرة أيام حيث ستتزود بالمياه وحيث ستنشئ القوات الآلية قاعدتها وسيتولى الراديو ربط القافلة بجميع محطات برقة.

وبعد بضعة أيام من التوقف لتفقّد الحمولة، ستواصل القافلة رحلتها إلى الجنوب إلى الهدف المنشود، وسيتم احتلال الكفرة في حوالي العشرين من شهر يناير حتى ولو أدى الأمر إلى تحطيم مقاومة العدو المنتظرة.

من بنغازي إلى جالو
عبر السرير

من بنغازي إلى جالو
عبر السرير

(جالو) يناير

غادرنا بنغازي في يوم جهنمي عاصف تآمرت فيه عناصر الطبيعة على صب جام غضبها، وقد تجمعت في السماء الشهباء السحب المثقلة بالمياه التي كانت تتلاحق وتصطدم ببعضها ثم تعود لتلتئم وتظهر من بين ثناياها لون السماء الأزرق الذي يتفق تماماً مع لون البحر الأخضر الباهت الذي تتابع أمواجه لتتحطم وتتمزق أمام أرصفة الميناء في رقصة جنونية تختلط فيها رؤوس الأمواج الرغوية بجدران المياه وبالأمواج المندفعة.

وكانت رياح الشمال تزمجر وتنحني لها رؤوس النخيل وتلقي بثقلها نحو الجنوب كإشارة استسلام وخضوع وتنصهر رخات المطر وزمجرة الرياح وأصوات طيور العواصف في جوقة موسيقية مزعجة لتضاف إلى إطار ثورة جميع العناصر الطبيعية العنيفة هذه.

كان برنامج الجنرال غرازياني الذي تفضل عليّ بمرافقته، يفضل السفر جواً إلى أجدابيا وجالو، إلا أن السفر بالجو في ذلك اليوم كان مستحيلاً بسبب رداءة الطقس والزوابع، ولذلك تقرّر السفر بالسيارة إلى أجدابيا ومنها إلى جالو في اليوم التالي، فنقلنا أمتعتنا إلى السيارة 521 التي تولى قيادتها الجنرال نفسه وجلس إلى جانبه سائقه في حين أخذت مكاني داخل السيارة وإلى جانبي الكابتن

(ماركيا فافا) وهو من مدينة روما وله سجل ناصع في عمله مع المجموعات الصحراوية في طرابلس[1].

مررنا بالمقبرة المسيحية التي كانت أشجارها تعبّر عن ضيق بنغازي من هذه العاصفة التي حلّت بها، وكان نخيل بنغازي عن يميننا ومنازل البركة عن يسارنا التي كانت تخفي عنا البساتين التي تتوّج موقع الليثي نهر النسيان المختفي في مغاراته المخيفة، وهو الذي يربط بين الإنسان والمجهول، وما بين الظلام والنور والحياة على سطح الأرض وباطنها المخيف.

طريق قمينس جيدة وتسمح للجنرال بالانطلاق بسيارته وسط المياه واللفحات الرطبة التي تنقل إلينا رائحة البحر، وقد امتدت إلى جانبنا طريق القوافل القديمة التي استعملتها السيارات لسنوات عديدة ثم هجرتها بعد إنشاء الطريق المعبدة التي نجتازها. تجاوزنا في أقل من ساعة نخيل وحقول القوارشة الواقعة إلي اليسار ووصلنا قمينس مارين على أضرحة مرابطين صغيرة ومجموعات كبيرة من الأبقار كانت تتحدى رداءة الجو بحثاً عن المرعى.

وفي قمينس تنتهي الطريق المعبدة وتبدأ طريق غير معبدة تستعملها السيارات بصورة مقبولة في الحالات العادية، إلا أنها قد غطت المياه أجزاءً كبيرة منها وتكاثرت فيها الحفر والشقوق وتخللتها جداول المياه، ولذلك خففنا السرعة وواجهنا بنفس هادئة قفزات السيارة التي لا بد منها، وأخذت الرياح تضربنا في الجانب الأيمن وكثيراً ما كانت المياه تتسرب إلى داخل السيارة ويصيبنا رذاذ المطر.

كانت اجدابيا هدفنا القريب، وجالو الهدف الأبعد وهي أقصى مراكزنا الجنوبية وتقع على خط العرض 29 وتحيط بها الصحراء الحقيقية، وقد احتللنا اجدابيا ثم أخليناها ثم عدنا إلى احتلالها عام 1924، بعد انهيار الإمارة التي انهار

1 ـ في الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب تحت الطبع، مات الكابتين ماركيا فافا في حادث سيارة أليم.

معها، لحسن حظنا وحفظاً لكرامتنا الوطنية، قصر من التنازلات السخيفة وإحياء متناقض للسنوسية السياسية، وترتبط اجدابيا بميناء الزويتينة الصغير الذي يبعد عنها بمسافة ثلاثين كيلومتراً، بخط حديدي «ديكوفيل» يسمح بنقل بضائع ومواد ثقيلة نسبياً، وقد اتخذت اجدابيا كما ذكرنا قاعدة لإعداد الحملة الموجهة إلى الكفرة وعاشت اجدابيا مثل المراكز الصغيرة، شهراً مليئاً بالأحداث وحركات التنقل المصطنعة لتعود بعد أن تمر العاصفة ويخف الضغط إلى مركز صغير مثلما كانت، وقد زرنا في شهر نوفمبر عن طريق الجو عندما كانت الاستعدادات على أشدها، وتحيط باجدابيا أراضٍ خصبة خاصة في الاتجاه الشرقي، فتبدو لمن يراها من الجو أجمل بكثير مما هي عليه في الواقع، وتنقسم اجدابيا إلى جزءين: ـ المدينة العسكرية المغلقة داخل أسوار القلعة وبها بعض المباني ومهبط وحظائر للطائرات وشارع كبير مشجر وبعض الطرق الأخرى الملتوية، أما المدينة الوطنية تشتمل على ميدان كبير وبعض الطرق والأشجار في الوسط، إلى جانب النافورة ومسجد غير كبير به بعض الزخرفة المعمارية وإلى جانبه مئذنة ذات رأس حاد، ثم هناك مبنى قيادة المنطقة الأبيض المهيب حتى من خلال خطوطه البسيطة.

واليوم يجب أن نصل إلى اجدابيا بالطريق العادي، وهو تعبير يخفي ما تكبّدناه في هذه الطريق من هزّات وقفزات وتزحلق وغير ذلك من الصعوبات التي تستهوي المولعين بقيادة السيارات الحديثة والسريعة على طُرق غير مجهّزة وممهّدة.

لا تتهموني بالتحامل على الطرق، فإن طريق اجدابيا ليست بأسوأ من غيرها وستغدو قريباً أفضل من طرق إيطاليا، بعد أن يتم عمل الرصف الذي يعمل فيه العديد من عرب معتقل سيدي أحمد المقرون، وهذا المعتقل عبارة عن مدينة خيام شاسعة منظمة بها مستوصف ومدارس وسوق ومقر للقاضي ولممثل

الحكومة وخصّص هذا المعتقل لجمع وتنظيم الرَّحل الذين كانوا في الماضي لا يخضعون لأي قانون بما في ذلك الشريعة الإسلامية ومجرّدين من أي نظام حضاري بدائي(*).

واصلنا السفر تحت نقر الأمطار وأصوات الرياح العاتية وتوقفنا من أجل تناول طعام إفطار سريع داخل السيارة، وكانت الأراضي المزروعة تمتد على طرفي الطريق وعلى مدى البصر وقد زرعت بالشعير بصورة جيدة ومحدّدة وارتفعت السنابل الخضراء قرابة خمسة عشر سنتيمتراً عن الأرض، وكانت تتمايل وتنحني مع الرياح، ونزل الجنرال من السيارة وأوقف بدويين ملتحفين بعباءتين قذرتين وأخذ يستفسر منهما باللغة العربية عن المطر والحرث والمراعي، وكان البدويان يجيبان على أسئلته بتردد، وكانت أعينهما مسمّرة على النسر والزخرفة التي تزيّن قبعة الجنرال، واقترب أحدهما مني وسألني بلغة إيطالية مفهومة عن هوية الرجل الذي يتحدث معه، وعندما أخبرته من هو رفع يده بالتحية الرومانية وأخذ يحني رأسه حتى ابتعدت السيارة.

وبعد اجتياز الأراضي المزروعة بدأت سلسلة من المراعي تتخللها بعض الشجيرات والأضرحة المتهدمة، قبور لا يعرف أصحابها ولا من تضم من الأولياء المسلمين وقد زيّنت بقطع قماش ملوّنة وبأعلام ورقية مزقتها الأمطار..

* - يدّعي المؤلف وهو سكرتير الحزب الفاشيستي في برقة أن المعتقلات قد أقيمت لجمع وتنظيم الرحّل المتمردين على القانون وعلى الدين والمحرومين من أي نظام حضاري حتى ولو كان بدائياً، وهو يعرف جيداً أن هذه المعتقلات قد حشد فيها أبناء قبائل برقة العريقة والأصيلة والذين كانوا ينعمون في موطنهم الأصلي بالاستقرار والثروة ويملكون الأراضي والحيوانات ويتمتعون بحضارة تحكمها قيم وأخلاقيات لا يعرفها الكاتب ولا مناطق كثيرة في إيطاليا آنذاك، والكاتب يعرف أيضاً أن سياسة إيطاليا اللاإنسانية قد حشدت جميع سكان دواخل برقة في المعتقلات لمنعهم من تقديم المساعدة والعون للمجاهدين الذين كانوا يناضلون من أجل طرد الغزاة وتحرير الوطن، وقد استولت إيطاليا على أراضي وممتلكات سكان المعتقلات وقتلت حيواناتهم أو استولى عليها جنودهم ودفعوا بوجوه كريمة عزيزة إلى العمل في رصف الطريق الساحلي مقابل كيلو واحد من الشعير في اليوم.

المترجم

وكانت هناك مرتفعات كثيرة وبعض الأحراش المشوكة، ومجموعات من الزهور الصفراء وسط أوراق كثيفة ودهنية. وبدت في النهاية اجدابيا بيضاء وسط سماء باهتة ذات لون لؤلؤي رمادي خالية تقريباً من السحب.

دامت الرحلة ست ساعات لقطع أول مائة وثمانين كيلومتراً، ست ساعات سفر في جو بارد واهتزاز وعذاب متواصل. قمنا بجولة في شوارع اجدابيا وتوقفنا قليلاً في مقهى عربي حيث كتبنا البطاقات المعتادة إلى الأصدقاء الذين يعتقدون أن أفريقيا عبارة عن تنور دائم ملتهب، تناولنا طعام الغذاء في مطعم الحامية حيث تحتد المناقشات حول موضوع الساعة واحتلال الكفرة القريب، وذهبنا بعد العشاء إلى النادي حيث قامت إحدى السيدات الثلاث الإيطاليات المقيمات في اجدابيا بعزف بعض الموسيقى الجيّدة على بيانو متواضع، انسحب الجنرال بعد التاسعة للراحة وحذونا حذوه. وقد كانت تنتظرنا في الغد مرحلة طويلة أكثر مشقة للحاق بالقافلة المتوقفة في جالو انتظاراً في الشروع في المسيرة الكبرى، عبر الصحراء الليبية، صوب الواحات الغامضة التي تحتفظ بجثمان السيد محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية.

لقد ظلّت اجدابيا الهادئة والساكنة الحارس الأمين على جنوب المستعمرة حتى عام 1928 عندما تمّ احتلال جالو وقد غدت اجدابيا عريقة في إيطاليتها وركنت إلى الراحة تاركة لأختها المتقدمة في الصحراء، شرف الحراسة وإعداد الجنود للقفزة المنشودة.

نهضنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً وكانت رياح الشمال لا تزال عنيفة وإن كانت أخف من الأمس ولا تصحبها أمطار. وقد احتل الجنرال غرازياني غرفة قائد المنطقة الذي يتولى الآن قيادة الحملة التي ستحتل الكفرة، في

حين استضافتي فني الطيران الذي لديه غرف مفروشة ومزوّدة بالكهرباء وأسِرّة حديدية صغيرة تدعو الإنسان إلى النوم بلطف.

وكان هناك خارج المهبط رجال الطيران ووطنيون مشغولون في تلافي الأضرار التي سبّبها سوء الأحوال الجوية وربما استطاعت الطائرات نقلنا إلى جالو بمساعدة الرياح، إلا أن الجنرال غرازياني أراد أن يواصل السفر بالبر ليتأكد شخصياً من متانة السرير الذي ستسير عليه سيارات SPA التي أكد الفنيون انها غير صالحة لمثل هذه الرحلة...

سافرنا في الساعة السابعة والنصف صباحاً تحرسنا سياراتان بهما بعض الضبطية لمساعدتنا في حالة غرق عجلات السيارة في الرمال وقد تكرّر هذا الحادث خمس أو ست مرات، والغريب أن غرق عجلات السيارة في الرمال أشد من غرقها في مستنقع مياه ويغدو الأمر خطيراً إذا لم يكن هناك من يرفع أو يدفع ويساعد السيارة على الخروج من الموقع الغادر الذي وقعت فيه.

يمتد على مسافة ستين كيلومتراً من اجدابيا، سهل متموج قليلاً تنتشر فيه هضبات من الأحراش تكسوها الأعشاب الخضراء الصالحة لمرعى الإبل ويتضاءل وجود هذه الأعشاب تدريجياً في الاتجاه الجنوبي إلى أن تحل محلها السهول القاحلة الخالية من النبات المفيد تحرقها الشمس وتضربها الرياح.

وكانت الحصيّات أول موقع وجدناه على طريق اجدابيا ـ جالو، وبه برج صغير تحرسه نصف سرية اريترية بقيادة ضابط، ويقع البرج على هضبة من الرمال ويسيطر على ما حوله. ويبدو أنه يراقب منخفض الوادي الفارغ الذي ينشأ في جنوب العقيلة بصحراء سرت ويأتي ليموت هنا في منخفض آخر يدعى وادي الملاح ووادي الأراد. وهناك وادي فارغ آخر نجده على الخارطة يمتد إلى الجنوب ما بين جالو والزيغن ولا أعتقد أن هناك علاقة بين الإثنين حيث تفصل بينهما مسافة أربعمائة كيلومتر من الأرض..

وفاجأتنا رشة مطر أمام برج الحصيَّات كتحية من سحابة عابرة، وواصلنا الرحلة إلى الصهابي حيث يوجد حصن آخر بالقرب من بئر ماء وأمام بقايا مزرعة رومانية وتقع المسافة التالية إلى جالو في أرض مقفرة وقاتمة، فقد تلاشت الأحراش وسيطرت الرمال على كل شيء، وندر وجود الهضبات وإن وجدت فجميعها من الرمال، ويتولى القيادة في الصهابي أحد ضباط الصف ويرتبط هذا المركز عن طريق الراديو بجميع المراكز العسكرية الأخرى، وتوجد بالحصن براميل بنزين لتزويد السيارات المارة وكذلك كميات من الشعير لإطعام حيوانات المحلة التي سوف تمر من هنا.

ويوجد بالحصن بئر مياه يسد حاجته وبئر آخر كبير مياهه أقل صلاحية للشرب لضعف كميات المنغنيز بها وهو يقع على بعد مائة متر تقريباً من الآثار الرومانية.

في الوقت الذي كنا فيه نتزود بالبنزين والزيت والمياه، كان الجنرال غرازياني يتحدث مع جنود الحصن: اثنان من ضباط الصف وبعض العرفاء المكلّفين باللاسلكي ونصف سرية اريترية. وواصلنا الرحلة بعدما تزوّدنا بما نحتاجه، إلا أن عجلات السيارة غرست في الرمال بعد مغادرتنا بدقائق، وتولى الضبطية الذين كانوا برفقتنا عملية إخراج السيارة من الرمال بواسطة لوحات خشبية كالمعتاد.

عدنا إلى السير على السرير العاري والقاحل الذي لم نرَ له مثيلاً، رمال صفراء ناعمة عنيدة في كل مكان، وعندما أراد شعاع الشمس أن يظهر مخترقاً عطاء السماء القاتم ألقى على الرمال لوناً أصفر مائلاً إلى الاحمرار، وبالطبع فلم يعد يوجد أي أثر للنبات.

وعلى امتداد الرمال التي غيّرتها الرياح عبر قرون طويلة وأعادت تكوينها ومواقعها، كنا نرى طبقة من الحجارة الصغيرة لا يزيد حجم أكبرها عن حبة

البازلاء ويصل أصغرها إلى حجم رأس الدبوس، كانت تبعث أضواء غريبة تؤثر في العين وتشجع على تكوين سراب يتكرر وجوده في هذه المناطق.

وبدت لنا، على بعد أربعين كيلومتراً من الصهابي ثلاث هضبات يبلغ ارتفاعها بضعة عشرات الأمتار، غير أنها إذا ما نظر إليها الإنسان من على بعد تبدو كأنها جبالاً تعترض طريقنا وذلك بسبب الرؤية الصحراوية الخادعة والمضللة، وقد تركنا اثنين منها على يسارنا وواحدة على اليمين، وعندما مررنا بقربها أردت أن أدرسها باهتمام فوجدتها من الجانب الأمامي كأنها ذات طبيعة صخرية، وعندما تأملت جانبها الجنوبي المعرض للرياح باستمرار أدركت بسهولة أنها هضاب ذات تكوين وطبيعة رملية أنهكها التآكل ورياح القبلي الصحراوية.

توقفنا لتناول طعام الإفطار في الخلاء مضطجعين على بطانية ميدان فوق السرير بالقرب من السيارة ولم يدم الإفطار أكثر من ربع ساعة انطلقنا بعدها يدفعنا الشوق إلى رؤية الأشجار والخضرة والنبات، وغرست عجلات السيارة من جديد في الرمال وتكرّرت عمليات تخليصها وأخيراً بدت تلوح أوجله عن بعد منزوية وسط نخيلها.

وتتولى أوجله الآن حراسة كميات كبيرة من الوقود المعد للنقل إلى الزيغن لسد حاجة طيران ثمانمائة ساعة المقرّرة للاثنتين والعشرين طائرة التي ستشارك في العمليات الحربية. وتبعد جالو عن أوجله ثلاثين كيلومتراً إلا أن الطرق المؤدية إليها كثيرة ومتشابكة الأمر الذي يتطلب وجود دليل لتجنّب السير فوق طرق ملتوية لا نهاية لها فوق السرير الذي يعود لفرض سيادته بعد اختفاء النخيل والبساتين.

والحديث عن السرير المنبسط لا يعكس الواقع، فالصحراء تتكون من عدة

مسطحات كمدرج ضخم لا يشعر المرء به إلا إذا نظر إلى السيارة التي تتبعه فيراها تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى، وأخيراً تجاوزنا آخر مسافة ووصلنا جالو.

قبيل وصولنا إلى العرق، مركز جالو الرئيسي، وجدنا التجمعات الصحراوية المكلفة باحتلال الكفرة، معسكرة في تلك المنطقة، وتجمّعت حول خيمة القيادة المرفوع عليها العلم الإيطالي، مجموعتان ومعهما الإبل والمهارى، وجميع الخدمات وقد ألحق بهما قسم مدفعية محمولة على الإبل، وحطت على بعد من المجموعتين قافلة الثلاثة آلاف وخمسمائة بعيراً التي ستتبع القوات العاملة حتى الكفرة، وتجمعت إلى اليمين من الواحة في قرية اللبّة السيارات المقرر توقفها بالزيغن بسبب عدم استطاعتها مواصلة السير في الصحراء، وهي مشحونة بالوقود والمتفجرات الخاصة بالطيران وبمواد مختلفة، كما أقيمت ورشة بالخلاء يتولى الجنود العمل السريع بها لإصلاح وصيانة المحركات، وبعد مشاهدة هذه الاستعدادات وصلنا إلى مركز قيادة المنطقة الواقع في مربع جميل اتخذ مقراً مؤقتاً للقيادة العامة، وقد وجدنا «دوق بوليه» والجنرال «رونكتي» والكولونيل «فولبيني» والكابتين «مانسيو» في استقبالنا والترحيب بنا، وفي الوقت الذي اختلى فيه الجنرال غرازياني بالقادة، قمت بصحبة الزميل «ساندري» مندوب صحيفة «بوبولو دي ايطاليا» وقد سبقنا مع الجنود بجولة في البلدة التي تتكوّن من بيوت قائمة على جذوع النخيل ومغطية بالطين والرمال، وكثير من المتاجر الصغيرة التي تعرض خضراوات البساتين والتمور والأشغال اليدوية المختلفة الألوان من السعف والحلفاء وعلب كبريت سويدية صناعة الاتحاد السوفياتي وهي من بقايا البضائع المهرّبة من مصر، وتمتد هذه المتاجر على طول الشارع الرئيسي وحول ميدان السوق.

وكان السكان العرب والزنوج ينظرون إلينا ببرود دون أن يتحرّكوا أو يرفعوا أيديهم لتحيتنا على الطريقة الرومانية، وكانت هناك بعض النسوة المحجبات ذات الجلباب الطويل الأسود وكن يحاولن الابتعاد عنا إذا مررن بنا، وطابع جالو صحراوي بحت، نخيل وحقول وآبار مياه مالحة قليلاً، وبيوت من الرمال المضغوطة لا تكاد ترى نوافذها. هذه هي جالو الواقعة على خط العرض 29 والتي تعتبر حتى اليوم أقصى مواقعنا جنوباً والتي تحوّلت فجأة إلى قاعدة متقدمة للعمليات التي ستنقلنا 600 كيلومتراً جنوباً إلى وكر السنوسية وقطاع الطرق والمتمردين علينا(*).

وتعتبر جالو آخر موقع تتوفر فيه المياه الغزيرة قبل التوغل في الصحراء الكبرى إذا ما استثنينا بئر بو الطفل الذي يقع خارج طريقنا حيث يتجه قليلاً إلى الشرق، وظلت جالو على مدى قرون طويلة مركز رحيل واستقبال القوافل التي تخترق الصحراء ذاهبة إلى الجنوب ثم تعود إلى جالو ثانية بعد رحلة طويلة شاقة.

وكان سوق جالو قبل احتلالنا، عامراً بالسلع التي تأتي بها القوافل العديدة القادمة من الجنوب ومن مصر، وكان التبادل التجاري قوياً مع مصر قبل احتلالنا للجغبوب، فكانت القوافل تأتي بالتبغ والقطنيات والسكر والشاي والذخيرة وتعود حاملة التمور والمصنوعات اليدوية والخضروات التي تنتجها الحقول المروية والمعتنى بها جيداً.

---

* ـ لقد تجمع في الكفرة عدد من زعماء الجهاد الليبي والمجاهدين أمثال عبد الجليل سيف النصر، وصالح لطيوش، وعبد الحميد بومطاري، وغيرهم ليتخذوا من الواحة منطلقاً جديداً لمواصلة الكفاح بعد أن استولت ايطاليا على جنوب طرابلس وحاصرت عمر المختار في الجبل الأخضر.

ولم يستطع المؤلف أن يرتفع إلى مستوى الباحث التاريخي بل نزل إلى حضيض غيره من الكتّاب الإيطاليين الذين يستعملون الألفاظ الرخيصة والقذف والشتائم عندما يتحدثون عن المجاهدين وهم يعلمون أنهم أحرار شرفاء، يذودون عن وطنهم وكرامتهم...

المترجم

حدثت في جالو عام 1928 مأساة مؤلمة حدثوني عنها عندما كنت أتجوّل في السوق مع «ساندري» والكابتن «ماركيافافا»، وقد وصلنا السوق وهو عبارة عن نصف دائرة تقوم عليها مساكن منخفضة تحتوي على دكاكين غامضة ترتفع قليلاً عن سطح الأرض ويقوم بالميدان مبنى مكعب مشيّد بالجير وجذوع النخيل، كان يستعمل في السابق مقراً للبلدية وفي الفترة التي تلت احتلالنا للواحات الواقعة على خط العرض 29، تكررت هجمات البدو على الواحة بدافع من شعورهم بأن احتلالنا للواحة احتلال مؤقت، وقد واصلوا أعمال الغزو والاستيلاء على حيوانات القبائل الخاضعة لنا، وكانت قواتنا بالطبع تواجه عمليات العدو هذه وتحاول أن تضع حداً لها، إلا أن الأخيرة كان يستعين بالمنازل بحيث أن رد فعلنا كان يجد دائماً فراغاً أمامه، وحتى عندما كانت قواتنا تقوم بعمليات على نطاق واسع وبقوات سريعة فإن النتائج كانت ضئيلة ونادرة.

وشاء القدر في يوم من الأيام خلال عملية تقفي آثار الثوار، أن أكتشف أحد المخبرين آثار اقدام حافية للمدعو (يوريو جوسيبي) وهو جندي إيطالي هارب منذ سنوات بسبب الحكم عليه بالسجن وانضم إلى الثوار، وقاتل معهم، وقد تمّ القبض عليه مع بعض الثوار الآخرين.

وقصة هذا الجندي تشبه قصص الفارين من الجيوش الفرنسية والاسبانية العاملة في شمال افريقيا، فقد اعتنق يوريو الاسلام واختار اسم يوسف المسلماني، وقد استطاع في وقت قصير بفضل مكره الفلاحي الغريزي وقليل من الحضارة السطحية أن ينال عطف الكثيرين، وأن يكتسب نفوذاً ومكانة بين عرب جنوب بنغازي الذين اعتبروه مسلماً صادقاً وقائداً شجاعاً، وقد تزوّج امرأة بدوية حسب التقاليد العربية وأنجب منها أولاداً تربّوا تربية عربية وفي أحضان الإسلام، وكان يوسف في طريقه إلى زوجته التي كانت تقيم في اجدابيا منذ بعض الوقت، ومرّ بالقرب من جالو عندما وقع في قبضتنا، وقد حكم عليه

بالموت رمياً بالرصاص في ظهره بصفته إيطالياً فاراً من الجندية، وكان مسلكه خلال المحاكمة وبعد الحكم عليه بالإعدام، مسلك رجولة وإباء واعترف بكل جريمته ولم يطلب الرحمة ورفض طلب العفو، وسئل إذا ما كان يرغب أن يموت مسيحياً فإن هناك من يتلقى اعترافاته. رفض الاقتراح وفضل أن يموت مسلماً وقال أنه يفضّل أن يعيش أولاده آمنين بين العرب، وقبل تنفيذ حكم الإعدام طلب أن يكتب رسالة إلى أخيه أخبره فيها بالأحداث التي مرّ بها حيث أن أسرته كانت تظنّه ميتاً وطلب إليه أن يربّي أبناءه في حالة حصوله عليهم، ثم أشعل لفافة تبغ وسار نحو المكان الذي اختير لإعدامه في ميدان السوق، ووقف أمام الجدار وانتظر إطلاق النار عليه وسقط دون أن تصدر منه أية إشارة تألّم أو تأوّه. وبالرغم من خيانته والروح القدرية التي تعلّمها من عرب الدواخل فقد مات رافعاً رأسه بإباء أمام الخلود وقد مات كإيطالي.

هذه هي قصة يوريو جوسيبي التي عادت إلينا ذكراها ونحن نسير ببطء ما بين قفاف التمور وأكوام الخضروات في سوق جالو الصحراوي(*).

عدنا قرب الغروب إلى القيادة وتوقفنا قليلاً لنسمع ثرثرة الفتيات المتجمعات قرب البئر، وكل منهن بيدها وعاء فخار تنتظر دورها لتملأه بالماء.

وصلت الطائرة التي كنا تركناها ببنغازي إلى هنا بعد الظهر قبل وصولنا،

---

* ـ قصة يوسف المسلماني معروفة ومشهورة لدى رفاقه المجاهدين ولدى عرب برقة الذين عاصروا تلك الفترة، انها قصة بطولة وإقدام وثورة ضمير على الممارسات اللاإنسانية التي كان يقوم بها الإيطاليون ضد العرب، لقد انضم إلى المجاهدين بمحض إرادته، لا فراراً من السجن كما يزعم المؤلف، وقد كان صادقاً في إسلامه وجهاده وأحبه المجاهدون وقدّروا شجاعته وحسن تدبيره، وأسندوا إليه قيادة العديد من العمليات ضد العدو، فأداها بنجاح وكفاءة، وتزوّج فتاة بدوية وأنجب منها أولاداً تربوا وترعرعوا في رعاية وحماية أفراد القبيلة التي تنتمي إليها والدتهم، وذكر شهود عيان كانوا بجالو يوم تنفيذ الإعدام في يوسف انه كان رابط الجأش مرفوع الرأس، وقد صلى ركعتين قبل تنفيذ الحكم، وعندما وقف ينتظر رصاص الإعدام كان يتمتم بالشهادة، وربما يتلو بعض آيات من القرآن الكريم.

المترجم

وهي تستعد الآن لاجتياز صحراء العطش، وقد أخذت أضواء الطبيعة تختفي تدريجياً لتحل محلها الأضواء التي ابتكرها الإنسان الذي يواجه اليوم المسافات والأخطار بإيمان قوي ويسيطر على الطبيعة العاصية ويجبرها على الخضوع لمشيئته.



من جالو إلى الزيغن

من جالو إلى الزيغن

تولى المنطاز الذي وضعته القيادة تحت تصرّفنا إيقاظنا في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة، وقدّم لنا قهوة الصباح التي أصبحت مشروباً غريباً بسبب الملوحة التي أضفتها عليها مياه جالو وغيّرت طعمها، قمت ببعض التمارين وخرجت من مقر المديرية الذي استضافتني وقضيت فيه ليلة باردة أنظر إلى السماء فأرى أن الفجر قد بزغ منذ زمن، وأنظر إلى الشرق فأرى شعاعاً من الضوء الذهبي والبنفسجي يلون الافق متغلباً على الأضواء الأولى المشرقة، وقد أخذ قرص الشمس يرتفع ببطء فوق نخيل الواحات البعيدة كصحن كبير من النحاس..

كانت الرياح جنوبية (قبلي) وقال مضيفنا عند مروره بنا أن الرياح ستعرقل رحلتنا وفي الحال ارتفعت رياح جنوبية شرقية قوية تبشر بارتفاع درجات الحرارة بعد أن أخذت برودة الليل تتلاشى، اغتسلنا بماء يحتوي على كلور الصوديوم الذي لا يتفاهم مع الصابون وخرجنا بعد أن أعددنا حوائجنا، إلى الميدان الذي به القيادة، فوجدنا مجموعة من الأطفال الذين يقوم بتدريبهم الكابتن سيرانتوني، وكانوا في انتظارنا لتحيّتنا باللغة الإيطالية وإسماعنا نشيد «جوفينتزا»(*) وكان العلم الإيطالي يرفرف فوق مقر القيادة وفوق المدرسة الإيطالية العربية، وبالنسبة للإيطالية فلا يوجد الآن سوى مدرس إيطالي واحد

* ـ النشيد الرسمي الفاشيستي.
المترجم

وحسب إرادة التلاميذ العرب، وقد انضم إلينا في الميدان الجنرال غرازياني ورفاقه وتولّت سيارتا نقل وسيارة صغيرة إيصالنا إلى المطار الذي يمتد عند أقدام القلعة، وجدنا في المطار الطائرات السبع وقد وقفت في صف كطلبة المدارس في انتظار من سيستعرضهم من المسئولين، وكانت تنطلق أضواء فضية من لوحات الألومنيوم التي تغطي المحرّكات وذلك في كل مرّة لمست أشعة الشمس هذه اللوحات، وكان هناك في أقصى المطار عدد من الإبل مشغولة بالتهام الأعشاب الموجودة بالمطار، وأخذت بعض محركات الطائرات تدور ويرتفع صوتها وأخذ الطيارون في إزالة الأغطية عن المراوح في الوقت الذي واصلت فيه الإبل التهام طعامها، فقد تحضرت هي أيضاً وتعوّدت على صوت المحركات.

كان الجو في الصباح لا يزال بارداً ويجب على الإنسان خلال الطيران أن يتدثر جيداً في حين تستعد الطائرات الثلاث الأولى للطيران وعلى رأسها طائرة الجنرال غرازياني التي يتولى قيادتها الكولونيل لوردي، وقد طارت بسرعة في اتجاه عكس الريح، هذا في حين ظلت طائراتنا بضعة دقائق علي الأرض، وقد أرخيت حزام الأمان الذي لا يتناسب وحجمي، وقمت بتنظيم الأشياء التي احتلّت كل مكان في الطائرة، وانتهزت الفرصة لأعلّق في حزامي زجاجة كونياك كاحتياط لا يخلو من فائدة كما سنرى، الملازم مارتيني وهو طيار جيد ومن مدينة تورينو التي يحنّ إليها، وقد أخذنا نستعيد ذكريات مدينتنا وأمجادها وجمالها، وبعد تجربة المحركات انطلق مارتيني بالطائرة لمسافة مائة متر ثم وجهها ضد الريح وبعد أن أمرنا بالاستعداد ارتفع بالطائرة الوديعة بعد انطلاقة سريعة فوق الرمال، وقد رأينا من علونا العرق وهو الحي الرئيسي في جالو، وكانت مبانيه ملتفة حول مبنى القيادة الذي يرفرف عليه العلم المثلث الألوان، وكانت المنازل ذات اللون الغيراني وقد التصقت ببعضها كأنها تبحث عن الحنان والعطف. ويكتسب هذا المنظر بمنازله وألوانه طباعاً رومانسياً، وكانت رؤوس نخيل لبّه الخضراء تميل نحو الشمال تحت وطأة الرياح التي يبدو أن حدّتها كانت في ازدياد طالعنا.

لم يتجه الطيار نحو الجنوب الشرقي، وإنما أخذ يحوم فوق المطار ويوسع دوراته الحلزونية، فماذا يحدث؟ وجاءني الرد بعد أن رأيت الطائرتين الأخريين لا زالتا على الأرض، ويبدو عليهما التردّد في الاقلاع، وأخيراً ارتفعت الطائرتان وشرعنا في رحلتنا إلى الصحراء التي انتهكتها القوات التي كانت تنتظرنا في بئر الزيغن وهي منطقة صحراوية منخفضة قليلاً غزيرة المياه حيث يكفي حفر بضعة امتار للعثور عليها، لا توجد مياه في المنطقة الصحراوية المحرقة الممتدة لمسافة 600 كيلومتر من جالو إلى الكفرة إلا في الزيغن، إذا ما استثنينا بئر بالطفل القريب من جالو.

أخذنا نتتبع من الجو آثار قواتنا على الرمال ونواصل الطيران رغم الرياح المعاكسة وبعد بضع دقائق بدا لنا بئر بو الطفل كموقع صغير محروم من النخيل وتتعذّر رؤيته من الأعلى، وهو يبعد قرابة الثلاثين كيلومتراً عن جالو، وكانت قافلة الكابتن بريتسي قد توقفت هنا في أول أكتوبر 1928 للتزود بالمياه قبل اجتيازها الصحراء، ازدادت حدة الرياح خطورة وتضطرنا إلى الضغط على المحرك فتتأرجح الطائرة وترقص ثم تسير إلى الأمام. البساط الصحراوي عادي دون تضاريس وهو شبيه بمناطق الجليد الشاسعة إلا أن لونه حديدي أصفر يميل إلى الاحمرار، وميادين الجليد مهما كبرت مساحتها تتخللها رواب وأشجار، أما في الصحراء فلا يوجد شيء من ذلك.

وفجأة رأيت على الأرض كتلة قاتمة كانت تتحرك وتغيّر مكانها، وفي لحظة كنا فوقها وهي عبارة عن بعير يحتضر تركته وراءها قافلة الصحراويين، إنه لا يزال حيّاً ويحاول أن يقف وربما مرّت على وجوده هناك عشرة أيام، إن شدة مقاومة هذه الحيوانات عجيبة حقاً، فتبدو كأنها بلهاء عندما تقبع على الأرض في انتظار حمولتها وتصدر عنها أصوات رتيبة ومزعجة وحزينة تشبه نغمات الموسيقى الأمريكية الحديثة التي تحاول أن تكون عاطفية إلا أنها ابتعدت عن طبيعتها المعتادة.

وفي الوقت الذي كنا نتتبع من الجو آثار قواتنا للوصول إلى الزيغن وفقاً لأوامر الطيران التي صدرت وقت سفرنا، فإن رياح الجنوب أخذت تتزايد وحدتها وتمهّد لزوبعة مخيفة في هذه الأجواء، عملت على إزالة الآثار التي تركها رجالنا على الرمال وزادت من رداءة المنظر وبؤسه، وتتحرك الرمال بفعل الرياح وتكوّن خطوطاً متوازية تتحول إلى تلال صغيرة ثم تتحلل من جديد، الرؤية ضعيفة ولا توجد أي نقطة إشارة ومع ذلك كنا نشعر أن الطائرة لا تتحرك رغم صوت المحرك الذي كان يعمل بكل قوّته، وقد رأينا إلى يسارنا هضبتين صغيرتين تبعدان عن بعضهما قرابة الثلاثين كيلومتراً ثم بدأت الطائرة في الرقص واضطر الطيار إلى تغيير موقعه مرتين أو ثلاث بحثاً عن منطقة اكثر هدوءاً، ومن المعروف أنه على ارتفاع ثمانمائة متر يقل الاهتزاز، إلا أن الرؤية تتعذّر ولا يجب الابتعاد عن الطريق التي سلكتها قواتنا، وقد تسبّبت الرياح في انحراف الطائرة على مستوى الأجنحة إلى السيارة ودفعتها نحو الشمال الغربي، ولا شك أن فقدان الاتصال معناه نفاذ الوقود من خلال محاولات لا جدوى منها، ثم الاضطرار إلى الهبوط في قلب الصحراء، وبالرغم من توفّر المياه والمؤن على الطائرة فإن الأمور قد تتسبّب في وضع قلق لا بالنسبة لنا وحدنا، درست الخارطة بدقة عسى أن أعرف اتجاهنا أو المكان الذي وصلنا إليه، وقد استطعنا بعد مجهود كبير أن نحدد بأن المنخفض المخيف الذي نحلّق فوقه هو الوادي الفارغ الواقع في منتصف الطريق بين جالو وبئر الزيغن، وهذا معناه أننا كنا بعد طيران ساعتين في منتصف الطريق في حين كنا نتوقع قطع الرحلة في ساعتين ونصف الساعة، فلا تزال أمامنا مسافة مائتي كيلومتر من السرير والله يكون في عوننا.

إن رؤية آثار إبل أخرى على الأرض دليل على مرور قواتنا، وإننا نسير في الاتجاه الصحيح، إلا أن هبّة من الرياح أزالت الآثار ودفعتنا إلى الغرب وأفقدتنا من جديد الاتجاه، فارتفعت من الأرض سحب من الرمال المحمرة وأخذت تلاحقنا في حين كانت الشمس لا تتخلى عنا لحظة واحدة، وفجأة خفف الملازم (مارتيني) قوة المحرك وانخفض بطائرته محاولاً التعرّف على الأرض...

وقد رأينا بقعة سوداء إلى اليمين لا تكاد ترى وكانت السيارة الوحيدة التي تركت في الصحراء بسبب كسر حدث في أحد أطرافها، وتفرّعت من تلك النقطة آثار طرق لا نهاية لها الأمر الذي يدل على أن السيارات كانت تسير على جبهة عرضها عدة كيلومترات لتجنّب الغرس في الرمال، ولذلك ليس من السهل العثور على الطريق الصحيح وسط هذا التشابك المخيف من آثار السيارات، وقرّر الطيار أن يتوقف قليلاً وأخذ يدور فوق السيارة الواقفة في الصحراء، وسررت في الحقيقة لذلك لأنها فرصة أستطيع أن أتخلص فيها لفترة قصيرة من النظارات والخوذة الملتصقة بوجهي ورأسي، وقد أصبحا بتأثير الشمس كقناع فرض عليّ بالقوة، ولقد لحقت بنا الطائرات الثلاث التي سافرت بعدنا وكانت بدورها تبحث عن أثر يقودها إلى الهدف وأود أن أقول إن من لديه خبرة حقيقية عن الصحراء يدرك مبلغ صعوبة الاتجاه في هذه الأراضي القاحلة الشاسعة الفاقدة لأي نقطة إشارة في تشابهها حيث يتخذ هيكل جمل ميت أشكالاً مختلفة وحيث تبدو صفيحة بنزين فارغة من على بعد مائتي متر كأنها سيارة وحيث السراب يعلو السراب. كما يجب أن نأخذ في الاعتبار الأمر الصادر إلى الطائرات باتباع آثار السيارات على الرمال ومعرفة الطريقة التي سلكها الجنود والتيقن بدقة عن كل احتمالات المستقبل، وفي الوقت الذي اجتمعت فيه الأربع طائرات وأخذ طياروها يتبادلون المعلومات لفت الانتباه تحرّك قافلة سيارات على الرمال تتجه نحو جالو بعد أن أفرغت حمولتها من الوقود وكوّنت مخزناً عند الكيلومتر 300.

عدنا إلى الطريق وقد أخذت تقترب منا أربع طائرات قادمة من الغرب من بينها طائرة الجنرال غرازياني وطائرة تقل المحامي العسكري والثالثة بها الكابتن ماركيافافا وقد دفعت الرياح السرب نحو الجنوب حتى تراءت لها تازربو ثم بعد أن عدلت اتجاهها جاءت للبحث عنا وعن الطريق، وقد واصلنا السفر على ارتفاعات مختلفة في أثر طائرة الكولونيل لوردي الذي تخلى عن اتباع آثار

الطريق وقرر الاعتماد على البوصلة، وقد ظل الجو سيئاً والرياح عنيفة إلا أن وجودنا معاً كان يبعد عنا القلق، مرّت أربع ساعات على رحلتنا والهدف لا يبدو بعيداً، وكانت السحب بين الحين والآخر تغطي الشمس التي كانت أشعتها تخترق ستائر نوافذ الطائرة وتلدغنا في أعيننا.

وبعد اجتيازنا لمجموعة من السحب رأينا على بعد بقعة كبيرة وهي مطار الزيغن الهدف المنشود لهذا اليوم، وبعد بضعة دقائق كانت الطائرات فوق المعسكر وقد رأينا من الجو السيارات وقد اصطفت إلى الشمال ثم القيادة العامة وخيام الضباط وسيارات القيادة البولمان وخيمة التمريض والسيارات المصفحة، وقد اتخذت قيادة الطيران مكانها أمام السيارات وإلى جانبها مهبط الطائرات الكبير حيث أخذت مكانها ثماني طائرات أمام براميل البنزين ومخازن القنابل، وقد وصلت هذه الطائرات بالأمس، وقد رأينا على أرض المطار قطعة كبيرة من القماش الأبيض رسمت في وسطها نجمة حمراء كدليل على أن بالمعسكر لواء يتولى قيادة فعلية، وتصاعد دخان أسود من الأرض وسرعان ما هبطت الطائرات بسلام.

استقبلنا دوق بوليه القائد الثاني للحملة والجنرال «رونكتي» قائد العمليات وكانا يظنان اننا عدنا إلى جالو بسبب رداءة الطقس ولم يتوقعوا وصولنا، لقد انتهكت الصحراء حتى من الجو رغم التعبير عن كل غضبها، وقد قطعت قواتنا هذه الصحراء في عشرة أيام دون أية خسارة وهذا ما يدل على الفعالية والنظام والاستعداد السوقي العجيب، استضافنا الزميل ساندري في خيمته وأخذ يحدثنا عن انطباعاته التي كانت تتفق وانطباعاتنا.

إن احتلال الكفرة أصبح مسألة أيام وسوف يتمزق الغموض الذي يحيط بهذه الواحة الضائعة في الصحراء، وذلك بفضل إيطاليا الجديدة التي لا تخشى المخاطر ولا المسافات...

مناظر من وادي الزيغن

بئر الزيغن ـ يناير:

وصلنا الزيغن بعد منتصف يوم 12 يناير بقليل ونحن في شبه ذهول من عنف الرياح ورحلتنا العاصفة فوق الصحراء الثائرة، وكان يكفي قضاء فترة قصيرة في خيمة الزميل ساندري وتناول كأس (كربانو) كي نعود إلى حالتنا الطبيعية ونتناول الطعام الذي كنا في حاجة إليه، وقد تناولنا الطعام في خيمة كبيرة قسمت إلى ثلاثة أجزاء واحد استعمل كمكتب للقيادة والثاني كمخزن وللنوم وقت الحاجة، والوسط لتناول الطعام وكان عدد القادمين أكثر مما كان متوقعاً، فبالإضافة إلى الجنرال وياوره المؤلف فقد وصل عن طريق الجو مراسل صحيفة (كوريري ديلا سيرا) بنديتي والمحامي العسكري الكولونيل اوليفيري والكابتن يانوتا المترجم الرسمي والوجيه البنغازي الشارف الغرياني والكمندتور عاكف قائد وحدة عسكرية طرابلسية غير نظامية تعمل في برقة، وقد ازدادت المقاعد على المائدة وجلست إلى يسار الدوق وجلس إلى يساري الزميل بنديتي، وكانت الوجبة سريعة ولكنها غير مملة، والدوق نديم جيد يتحدث بشغف عن أفريقيا التي اخترقها في جميع الاتجاهات على ظهر المهارى أو بطائرته التي يقودها بنفسه، وقد شارك الجنرال غرازياني في عدة معارك وخاصة حملة فزان التي يحتفل بمرور عام عليها في هذه الأيام.

استلقيت للراحة في خيمة موريتي التي خصّصت لي وقمت حوالي الساعة

الرابعة بجولة في المعسكر وذلك قبل ان يلف الظلام هذه المدينة المؤقتة المرتجلة، وقد أقيمت في بئر الزيغن قاعدة تحتوي على موقف للسيارات وورشة ومحطة لاسلكي ومهبط للطائرات ومخزن للقنابل وذخيرة للطائرات، ومستودع وقود للطائرات ومخبز وخيمة للتمريض والقيادة العامة، وتولّت المصفحات حراسة المعسكر وقد وجهت مدافعها صوب الصحراء استعداداً لإطلاق النيران.

وقد عسكرت القوات الصحراوية (المحمولة على الإبل) وكذلك قافلة الإبل التي تتبع هذه القوات حاملة المؤن الاحتياطية والمياه والذخيرة الإضافية، قرب بئر بوعتلة على بعد بضعة كيلومترات من مقرّنا، وقد عسكرت القوات حول قارة تشرف على ما حولها من مرتفعات، وعسكرت القافلة في اتجاهنا بالقرب من النخلة الوحيدة الميتة الموجودة والتي أسرت بعثة الدكتور بريتسي الصحية بقربها يوم 10 أكتوبر 1928 وهي في طريقها إلى الكفرة تلبية لطلب المشائخ الذين قاموا بأسرها، إلا أن الواقع هو أن السيد محمد العابد طلب إرسال البعثة وأرسل اثنين من أبنائه لمرافقتها وتأمين سلامة وصولها إلى الكفرة كما يقوم الدكتور بريتسي نفسه، غير أن الزوية أعدّوا كميناً للبعثة بعد أن أطاحوا بالسيد العابد. وإذا ما راعينا القوات القوية نسبياً التي رافقت السيد العابد لدى مغادرته الكفرة فربما كان في إمكانه إرسال قوّة مسلّحة من رجاله لملاقاة أولاده والدكتور بريتسي والقيام بحراستهم وتجنيبهم عملية الأسر والسلب.

أسدل الظلام ستاره على الصحراء وبدأت تلوح بعض الأضواء من الخيام وأسرعنا للحاق بوجبة العشاء التي تبدأ ولمرّة واحدة في تمام الساعة السادسة، ويطول العشاء في العادة أكثر من الغذاء، حيث يدور الحديث والمناقشات والتوقعات.

وبعد تناول العشاء، خرجنا لنتأمل السماء التي كانت ساكنة ومزدانه بالنجوم إلا أن الجو كان بارداً، وقد دعانا الدوق إلى خيمته حيث جلسنا حول النار واستأنفنا الحديث في حين كان هناك رجل يقوم بتغذية النار بالحطب باستمرار،

وفي الساعة الثامنة والنصف انسحبنا وكان الدوق قد ذهب للنوم لأنه تعود على النهوض مبكراً مما يدل على نشاطه المتواصل، وكان خلال الرحلة التي دامت عشرة أيام من جالو إلى الزيغن، كثيراً ما كان يترك السيارة التي كانت تقله مع الجنرال رونكتي ويسير مسافات طويلة على الأقدام أو على ظهر المهارى في الصحراء بين الذين كان يهتم بهم، ويتفقد أحوالهم بصفته مفتشاً عاماً للقوات الصحراوية في طرابلس، وقبيل النوم دعانا الزميل «ساندري» إلى تناول الشاي في خيمته ودار الحديث حول العمليات المقبلة وسررت لاتفاقه معي بأن احتلال الكفرة لن يتم بدون مقاومة، وقد ألقى الجنود القبض على عربي وزوجته وأولاده كانوا في طريقهم إلى جالو، وقد أفادوا أن هناك قرابة خمسمائة رجل مسلح حشدوا ما بين الجوف وواحة الهوارى، ومن المتوقع فإن رجالاً كعبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد بومطاري لا تأبى كرامتهم أن ينسحبوا إلى مصر دون مقاومة دخول قواتنا إلى المدينة السنوسية المقدسة.

13 ينـاريـر:

أيقظتنا عند الفجر الرياح العنيفة التي كانت ترفع أطراف الخيمة لتتسرّب إلى الداخل مع الرمال التي تصحبها، وأشعرونا أن الإفطار سيكون في الساعة العاشرة والنصف بدلاً من الحادية عشر لأن الجنرال غرازياني سيتفقد القوات الصحراوية التي ستسافر فجر اليوم التالي، أخذ «ساندري» و«دينامي» المكلف بأخذ شريط سينمائي للحملة، في إعداد حقائبهم للرحيل، أما نحن فلا ندري؟ وقد ذهبت مع بندريتي مراسل صحيفة (كوريرى ديلا سيرا) إلى الجنرال غرازياني نستأذنه في مرافقة الجنود الذين سيحتلون الكفرة، إلا أنه رفض بطريقة ودية غير قابلة للاستئناف، إن القوات الصحراوية في حاجة لجميع دوابها ولا تستطيع أن تستغني عن الأربع دواب التي سوف تستعملونها، كما سيكون هناك ضغط على المؤن التي يحملونها على ظهور الإبل والتي سيستهلكونها في الكفرة حيث أنه من غير المتوقع وصول قافلة أخرى، وأضاف الجنرال قائلاً إنه

في إمكانكم تتبع سير العمليات من القيادة وستصلون الكفرة معي يوم الاحتلال، فاقتنعنا مرغمين وذهبنا لنشاهد استعدادات الزميل ساندري الذي كان أكثر منا حظاً وأبعد نظراً حيث أمّن المواصلات وأحضر مؤنته معه من بنغازي، وأعترف بأنني كنت متخوفاً من المجهول فقد أحضرت معي معلبات غذاء وزجاجات وترموس، وقد طلب مني الكولونيل لوردي تركها لأن الطائرات كانت مشحونة ولا تحتمل أثقالاً إضافية، وهذه المنغصات تحدث لمن لم يستطع السفر مثلي بالوسائط العادية ويضطر أن يلتحق بالحملة عن طريق الجو.

وبدلاً من أن نكون من راكبي المهارى سنكون من فرسان الجو وذلك لا يسوؤنا لأننا سنأخذ نصيبنا من المخاطر والمتاعب ولسنا من المتقاعدين، وقد نستطيع من جهة أخرى تتبع سير القافلتين في نفس الوقت من الزيغن وذلك عن طريق المذياع الذي كان يراقبها بدقة وفي إمكانه مدّنا بالتفاصيل أولاً بأول.

تناولنا الطعام بسرعة وانطلقنا بالسيارة إلى المعسكرات من خلال أرض صحراوية منبسطة تتخللها بعض التلال التي ترتفع إلى ثلاثة أو أربعة أمتار، ومن الواضح أنه كانت هناك واحة في الزيغن ردمتها الرمال تدريجياً وقضت على الحياة النباتية فيها، فالإشارة المتكررة إلى النخلة التي استعملها رولفس في الخارطة الملحقة بكتابه موجودة بكثرة في الخارطة، التي أخذت أطلع عليها في الوقت الذي كانت فيه السيارة قد تركت تجويفين عميقين في أرض قاع الوادي الرملية التي تسبق منطقة تتكاثر فيها التلال وتتماسك أكثر.

وقد أخذت مكاني في سيارة الجنرال (رونكيتي) مع الزميل (بنديتي) وكنا أول المنطلقين يتبعنا الجنرال غرازياني وبرفقته المحامي العسكري والكابتن ماركيافافا ويأتي وراءهم في السيارة الثالثة الكابتين (فنزيو) والكابتن (يانوتا) وبعد مسيرة كيلومترين غرست عجلات السيارتين الثانية والثالثة في الرمال

الغادرة، وقد صعد الجنرال غرازياني إلى سيارتنا في حين تخلف (بنيدتي) ليزتي مع إحدى السيارتين الأخريين، ووصلنا بعد قليل إلى نخلة الدكتور بريتسي التاريخية وهي جزء من نخلة نخرة وضعت فوقها شبكة من الشباك التي تستعمل لتحميل الإبل، وإلى جانبها حطت القافلة وحمولتها الجاهزة للوضع على ظهور الإبل.

كان بعض الجنود الأرتريين من سرية الحراسة يقومون بتوسيع الآبار لصب المياه في أحواض حفرت في الرمال حيث اقترب وقت سقي الإبل، وستشرب كل رأس ما يقارب الخمسين لتراً من السائل الذي لن تتناول غيره حتى الوصول إلى الكفرة بعد ستة أو ثمانية أيام، وقد كلّف الرائد (روللي)، والذي كان يقود سرية جنود غير نظاميين بالصومال، بقيادة القافلة الغنية بكل خيرات الله في هذا المكان المقفر، وقام بشرح وضع القوات التابعة له للجنرال غرازياني، واصلنا السير بين مجموعة من التلال الرملية وكأنها قامت فجأة أمامنا وكان في وسطها معسكر للجنود الصحراويين وجاء الكولونيل (ماليتي) قائد مجموعة العمليات لمقابلة الجنرال (غرازياني) والجنرال (رونكتي) والماجورى (بوزيللي) منظم وقائد التجمع الصحراوي وهو صغير في السن وكبير في تجاربه الصحراوية التي اكتسبها في طرابلس وفزان من خلال خمس سنوات من العمل الشاق، وقد قام عندما كان بدرجة كابتن خلال احتلال فزان بنقل جنوده الصحراويين من غدامس إلى أدرى عبر الحمادة الحمراء ومرتفع تنقرت ومن إدرى إلى غات في رحلة جريئة تجاوز فيها هذه المسافة الشاسعة في أيام قليلة رغم الصعوبات التي كانت تتمثل في التلال الماكرة وغيرها.

ونفخ جندي أسمر طويل القامة في النفير، فوقف الرجال، وجميعهم يرتدون الملابس البيضاء وقفة انتباه لتحية العلم المثلث الألوان، الذي ارتفع فوق هضبة بوعتلة التي يقارب ارتفاعها الثلاثين متراً والتي تسيطر على غيرها من المرتفعات.

قمنا بزيارة سريعة لمخيم الصحراويين وكان كل منهم يحرص على راحلته التي سيضعها على ظهر بعيره ويسهر على قرب المياه وعلى بندقيته التي لفّها بالقماش كي لا تتسرب الرمال إليها لتكون مستعدة لإطلاق رصاصها على محلات الثوار، والشبان المنخرطون في القوات الصحراوية جاء معظمهم من الكتائب الليبية المنحلّة في برقة وتمّ تدريبهم وتنظيمهم في اجدابيا وأصبحوا أداة حرب عظيمة، ويضم الصحراويون بربراً وجنوداً من اثيوبيا وارتريا والصومال واليمن ومن المستعمرات الفرنسية والبريطانية المجاورة لممتلكاتنا على البحر الأحمر الذين فضلوا التطوع تحت العلم الإيطالي، وقد أصبحت القوة جاهزة تماماً للتحرك، فيكفي إنزال الخيام ووضع الراحلة على ظهر المهارى وشحن الزاد المغلّف والجاهز، وقد زرنا كل المخيم وحيينا الضباط الذين يؤملون في نجاح باهر.

ازدادت برودة الجو مع غروب الشمس وعدنا إلى بئر الزيغن نصف مجمدين من سرعة السيارة الراكضة من خلال الرمال، وذهبنا لزيارة الطيارين بعد تناول طعام العشاء، وكانت سبع طائرات قد وصلت من طرابلس بعد الظهر للمشاركة في العمليات وستغادر غداً طائرتان إلى بنغازي لإحضار مواد تحتاجها المحركات، ذهبت للنوم في خيمتي التي بدأت أحبها رغم البرد الذي لاحقها من كل مكان والذي أحاول أن أتّقيه بما أستطيع، فلدي بطانية وأضيف إليها برنوس أعطاه لي الجنرال رونكتي وأضع فوقها المعطف الجلدي وملابس أخرى لأشعر بالدفء، وقد بلغني أنه يحدث في هذا الفصل أن تتجمد المياه داخل القرب، ومع ذلك أملت خيراً ونمت.

14 يناير:

ألقيت نظرة على المذكرات التي دوّنتها وقرّرت أن أدوّن يومياً خلاصة الأحداث وسأباشر في إعادة كتابتها في وقت انتظار قيام الطائرة التي ستنقلنا إلى الكفرة وتقطع المسافة في أكثر من ساعة بقليل وهي المسافة التي استغرقت القافلة

في قطعها مدة خمسة أيام، خرجت لاحتساء قهوة الصباح وكان الجو هادئاً دون رياح.

علمت أن الحملة غادرت في الساعة 6.15 صباحاً في نظام تام وسافرت معها المجموعة الطرابلسية، ولحقت بهم بعد أيام سرية صحراوية مؤلفة من مائة رجل بقيادة الملازم «برونو» قدمت من بئر الزيغن وغادرت تازربو في طريقها إلى بزيما.

سلكت المجموعتان المتجهتان إلى الكفرة طريقين مختلفتين: التجمع البرقاوي يتجه من الزيغن إلى الهواويرى عبر الطريق التي سلكتها بعثة «بريتسي» تاركة إلى الشرق جبل الفضيل ومقتربة من القارة وبنيّتها وقارة الشريف مارة ما بين قارة الهواورية وجبل سرايا العلاقي، أما المجموعة الطرابلسية فتتحرك من تازربو إلى بزيما عبر الطريق التي سلكها لابيير متجهة إلى الهوارى تاركة الجبل الناري إلى غربها وقارة الهواورية إلى شرقها، وتلتقي المجموعتان عند واحات الهوارى والهواورية باعتبارهما واحة واحدة، ومن هناك يتوجهان إلى الهدفين الرئيسيين في واحة الكفرة وهما التاج والجوف، والاستيلاء في الحال على المواقع المسيطرة، وعلى المجموعة الطرابلسية أن تقطع مسافة أطول إلا أن حمولتها خفيفة وجانبها الأيسر مغطى بالكامل وهو الجانب المعرّض لقوافل الزوية التي تعوّدت على استعمال هذا الطريق.

وأردت أن أستفيد من فراغي فذهبت لزيارة ورشة السيارات وقد أعجبت بجنودنا الصغار وهم يعملون بهمّة على المخارط وأجهزة التعديل، وتبدو الورشة التي أقيمت في وقت قصير كأنها بين جدران مصنع حديث، إنها قدرة التكييف العجيبة، وفي طريق عودتي لتناول الطعام وجدت مجموعة من جنود الطيران يداعبون مهارى صغير ولد في الطريق منذ بضعة أيام وقد وقف على أرجله الطويلة وسينمو جيداً إذا استطاع ذلك لأن والدته قد ذهبت إلى الجنوب وحليب المعلّبات يقدم للبشر لا للحيوان.

تناولت طعام الإفطار بسرعة واحتسيت فنجان القهوة الثاني، وقمت بعد الغذاء بتزيين الخيمة ببعض صفائح البترول الفارغة، واتخذت منها مكتباً للعمل، سرير ميدان صغير ومقعد صحراوي هذا كل ما في الخيمة من أثاث، بل نسيت أن هناك كيساً فارغاً وضع على الأرض بدلاً من السجادة وشمعة غرزت في الرمال وحبل يربط بين طرفي الخيمة ليستعمل كخزانة ملابس وشماعة وألصقت على جوانب الخيمة من الداخل كما هي عادة الجنود صور مختلفة من بينها صورة ايتالو بالبو وهو ينزل من طائرته المائية ويبدو وكأنه يبتسم لي بسرور(*).

«أيها الصديق العزيز (موجهاً الكلام إلى صورة بالبو) والرفيق صاحب المقام السامي نحن أيضاً مع الفارق، نعمل من أجل امبراطورية إيطاليا وأن ذلك سيتحقق».

استغل «بنيدتي» لطف الكولونيل لوردي للقيام برحلة على الطائرة التي تحافظ على الاتصال ما بين القيادة والقوة المتقدمة وسيأتي دوري في يوم آخر.

ارتفعت عند الساعة الرابعة ريح شمالية وشمالية شرقية خفيفة وازدادت البرودة سنتناول الطعام عند السادسة مساءً ونتحدث قليلاً ثم نأوي إلى الفراش في وقت مبكر.

15 يناير:

كانت السماء في الصباح صافية والرياح جنوبية غربية وهي بوادر القبلي، أخبرنا الجنرال «رونكتي» أن الحرارة في الليلة الماضية نزلت إلى درجتين تحت الصفر كانت هناك حشرتا يعسوب أمام خيمتي وهذا أول دليل على وجود حياة حيوانية. حتى الحيوانات الهشة انتهكت الصحراء، عادت الطائرتان اللتان

* ـ عيّن حاكماً عاماً لليبيا في الفترة ما بين عامي 1934 - 1940 وقد أسقطت سفينة حربية إيطالية طائرته فوق طبرق وتوفي في الحادث، وسبب موته لا يزال لغزاً إلى اليوم.

المترجم

انطلقتا صباحاً في رحلة استكشافية ولم تمدّنا بمعلومات ذات مغزى فالقوات كانت تواصل سيرها بنظام والعمل على قدم وساق في المطار لقد تمّ إصلاح محرّكي الطائرات. الجنود في وقت الفراغ يتبارون في رياضة القفز، لاحظ الجنرال غرازياني خلال الغذاء، إن المجموعة البرقاوية تسير بسرعة وتبتعد عن مجموعة طرابلس التي تتجه من تازربو إلى الكفرة، فيجب على المجموعة الأولى أن تتوقف يوماً كي تستطيع المجموعة الثانية التقدّم.

تتوفر لدى الجنرال غرازياني ثمانية عشر ألف لتراً من المياه التي ستنطلق بها في الحال قافلة في أثر القوات الزاحفة لتكوين احتياطي مياه أكيد لسد الحاجة في حالة تأخر القوات عن الوصول إلى الكفرة في الموعد المحدّد، أما قافلة المؤن الكبيرة فيجب أن تتوقف بضعة أيام كي لا يقلق وجودها القوات المحاربة التي يجب أن تتصرف في كل قواها لمواجهة الهجوم المعادي المنتظر، عاد بعد الظهر الملازم «دراقو» الذي ألقى من طائرته برسالة إلى القوات المتقدمة.

خفّت حدّة القبلي بعد أن ظلّ عاتياً طوال النهار، منظر السماء تحفة فنية. من لا يذكر الصور الزيتية التي كانت ترد من ألمانيا وتزين قاعات الجلوس البرجوازية الصغيرة؟ سماء بلون الحليب الممخوض وبحر شديد الزرقة وأشرعة تشبه طيور البحر البيضاء في أيام الهدوء، هذه هي سماء الزيغن في الاتجاه الشرقي، وقد ازدان الأفق بشريط متلألئ بلون حجر الأوبال وتحوّل إلى لون الصدف ثم إلى ألوان أخرى من النحاس إلى الوردي والبرتقالي والأرجواني، وتبدو السماء فوق الأفق في لونها الأزرق وتناثرت عليها السحب البيضاء الصغيرة التي لطّفت من حدة زرقتها وجعلتها تميل إلى البياض، في حين أخذت الأشرعة في تغيير أشكالها وتتفكك إلى قطع صغيرة محدبة ثم تختلط مع بعضها ثم تعود تتفرّق من جديد لتصبح أكثر قتامة، والخطوط أقل وضوحاً فوق قاع متغيّر يلتقي فيما بعد في ألوان محدّدة تميل إلى الأخضر النيلي والأزرق وكل ذلك يقع في الجانب الشرقي من السماء بسبب ظاهرة انكسار الضوء العجيبة أما في الجانب الغربي

فإن الانفصال ما بين الشريط الواقع تحت الأفق والسحب التي تتوجّه يبدو واضحاً، ويظهر في الأسفل لون الحليب والكونياك يعلوهما اللون النحاسي الذي يتدرج إلى لون حائر بين الأزرق والبنفسجي، إلا أن اللون الأخضر كان هو المتغلّب.

وفي الوقت الذي كنت ألاحظ فيه السماء وألوانها، فقد صعدت الأشعة واقتربت من بعضها ثم اتجهت بحزم نحو السحب الغربية وأخذ الفاصل بين الجانبين يتضاءل إلى أن تلاشى تماماً، وبدت السماء في شكل جديد بالنسبة لنا تتجمّع فوقها أكوام قطنية تعلو بعضها البعض دون أن تخفي قاع السماء الذي يبدو ومن بين الفتحات بلون رمال الصحراء الصفراء التي تبدو من خلال رؤوس النخيل، وفي حين أن كل شيء ينطفئ تدريجياً، فإن السحب الغربية أخذت تغيّر ألوانها وتتحوّل إلى لون قريب من الأخضر وفجأة أسدل الظلام ستاره وكانت الساعة السابعة والربع ولم تدم العملية التي وصفتها أكثر من عشرين دقيقة...

تناولنا طعام العشاء بعد قليل ثم آويت إلى فراشي، وقد لاحظت في الظلام على ضوء السماء جنديين ينقلان هوائية الراديو إلى مكان آخر وعلمت في الصباح أنه كانت هناك صعوبة في الاستقبال المباشر من القوة المتقدّمة التي كانت تتصل بنا عن طريق راديو توريللي ببنغازي ثم عاد الاتصال كما كان بعد عدة محاولات..

16 يناير:

نهضنا مبكرين صباح اليوم على صوت صراع متوحش بين كلبين، وقد استيقظ أيضاً الجنرال الذي عمل في خيمته حتى ساعة متأخّرة من الليل، وعادت رياح القبلي تزأر من جديد بصورة مملّة، ومرهقة للأعصاب، اليوم ستتوقف قافلة الجنود يوماً كاملاً وإني أتوقع تأثير القبلي عليها لأن عناده يتسبّب في

ارتفاع حرارة مياه القِرب إلى درجات استوائية ولا تروي المياه العطشى من الناس بالإضافة إلى التبخّر الشديد الذي يزيد من استهلاك المياه، وتتوفّر المياه في الزيغن ولا تتعدى حرارتها 24 درجة وفي الإمكان الحصول عليها وقتما نريد، إلا أنه من الضرورة تخزينها لاتقاء تسرّب الرمال الناعمة إليها، أخذت حدّة القبلي تتصاعد وفي الوقت الذي نزلت فيه الحرارة إلى الصفر في الليلة الماضية فإنها عند الثانية عشرة ظهراً ارتفعت إلى 40 درجة تحت الخيمة، تركت الخيمة، وخرجنا إلى العراء تحت الشمس حيث كانت الرياح تلطف قليلاً من حرارة الجو، وحوالي الساعة الثانية تغيّر اتجاه الرياح من الجنوبي الشرقي إلى الجنوب الغربي وانخفضت درجة الحرارة قليلاً.

قامت طائرتان برحلة استطلاعية إحداهما برقاوية والأخرى طرابلسية، وكانت الأولى بقيادة الأمير الذي يعد طياراً ماهراً، وقد تمكّنت أخيراً مجموعة طرابلس بقيادة «كامبيني» من الاتصال بنا مباشرة بعد أن كانت تتصل عن طريق تازربو، وقد صدرت إليها الأوامر بتعديل طريق سيرها واتباع طريق مجموعة الكولونيل ماليتي الأكثر عدداً، وأن ترتبط بها عن طريق الراديو، وقد غادرت قافلة الاحتياطات المائية بقيادة الملازم «ديفيريا» DIVREA من المحتمل أن تصل غداً من بنغازي طائرتان تحملان البريد.

أخذنا نتعود على حياة البداوة ما عدا برد الليل القارس، وقد أصبحت حياة الخيمة مريحة، ولا شك أن الحياة البدائية تفتح الشهية وتفيد الصحة لدرجة أن الجنرال «رونكتي» أخذ يسطو على الطعام الاحتياطي، عادت الطائرات لتشعرنا بوجود تلال من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي تفصل بينهما بضعة كيلومترات، ولذلك على القوات الزاحفة أن تعدل في سيرها لتحاشي هذه التلال ـ وكانت السماء صافية جليّة إلا أن تغيّر اتجاه الرياح غطاها بسحب عالية يتغلب عليها البياض. وقد أخذت في التدرّج إلى اللون الرمادي وحجبت عنا الشمس بكاملها وقت الغروب.

وفي الساعة الثالثة بعد أن عدلت خيمتي التي هدتها الرياح الجنوبية، لفت نظري الجنرال «رونكتي» إلى نقطة صغيرة على بعد ثمانين متراً تقريباً بالقرب من الطائرات الجاثمة على الأرض، إنها عصفور السنونو، وقد قال مبتهجاً: ـ السنونو هنا في قلب الصحراء؟ وحيد وتائه، فأخذت اقترب بحذر من الضيف غير المنتظر إنه عصفور أتى به القبلي صباح اليوم في دوامة الرمال بعد أن انتزعه من الكفرة وهذه أول تحية تأتينا من المدينة المقدّسة وقد يرى فيه الإنسان العاطفي رسالة سلام، أما أنا فلست متفائلاً ولم أفهم أبداً الرمزية، وأخذ الطائر يلتقط بهدوء فتات الخبز ويتنقل بزهو لا يخلو من أناقة في وسط الحديد والفولاذ، وكأنه بين أفراد أسرته. وقد انهمرت المياه في الساعة الخامسة من المساء وأجبرتنا على الانزواء، المطر هنا؟

نحن إذن أولياء فقد آتينا بالمطر إلى اجدابيا حيث تقل الأمطار، وفي جالو حيث يرغب الناس في المطر ويخشونها في نفس الوقت خوفاً على منازلهم الهشة، قد حلّت الأمطار والزوابع، وفي الزيغن حيث قيل لنا إنهم لم يروا المطر منذ أربعين عاماً قد جاء المطر، وماذا سنحمل معنا إلى الكفرة؟[*].

بعد العشاء قضينا سهرة موسيقية لعدد من مشاهير الموسيقيين وكان الدوق منشرحاً ومرتاحاً وظل إلى نهاية السهرة.

17 ينـايـر:

لم نشعر بالبرد في الليلة الماضية، والسماء اليوم صافية، وقد تغيّر اتجاه الرياح إلى الشمال الغربي ومن المؤكد أنها ستتم دورتها: المحامي العسكري يقضي

---

* ـ يتساءل المؤلف ماذا سنحمل معنا إلى الكفرة؟ قد صبّوا على شعب آمن نيران المدافع وقنابل الطائرات وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ وهدموا دورهم ومساكنهم، هذه هي هدية إيطاليا المتحضرة لسكان الكفرة.

المترجم

الوقت في غفوات نوم متواصلة، حدث جديد اليوم، فنحن مدعوون للعشاء هذا المساء لدى فرقة المصفّحات بقيادة الرائد لورنزيني «أسد الصحراء» وقد استحق هذا اللقب فبالإضافة إلى لحيته الكثيفة ومظهره الأبي، فإنه كان أول من وصل إلى الزيغن قبل أربعة أشهر حيث قطع بقواته أربعمائة كيلومتر في الصحراء مسترشداً بالبوصلة.

تناولنا الطعام في جو لطيف مرح، لقد بذل مدير المطعم جهده لإعداد الطعام فقدّم لنا الكابوريا والمايونيز والمشروبات، والأطعمة الفاخرة، وقد آوينا إلى فراشنا في ساعة متأخرة من الليل.

18 يناير:

لم يتغيّر اتجاه الرياح، وقامت في ساعة مبكرة طائرتان في رحلة استطلاعية وعادتا في الساعة 12.30 وبهما ثلاثة جروح، فقد قامت مجموعة من الثوار تقدّر بثلاثين رجلاً بإطلاق النيران على الطائرتين إلى الشمال من الجوف، وقد تسرّبت رصاصة ما بين الأنابيب ولمست حبال دفة التوجيه، هل هذه هي بداية المقاومة أم هو عمل مجموعة من قطاع الطرق؟ ويظل السؤال بدون إجابة.

مرت العشية بدون أحداث إلا أن الجميع كانوا يشعرون بقرب الصدام، لا تزال الرياح تهب من الجنوب وتفرض تعديل بوصلة الطائرات للتغلّب على الانحراف، وكما هو معلوم فإن قوات «ماليتي» قد عسكرت في الليل بالقرب من تل كبير يسمى قارة الهواورية وهو أصغر مما يبدو على الخارطة، وقد أخذت قوات «كامبيني» تتقدم في الاتجاه الجنوبي الشرقي، الراديو يعمل في هذا المساء دون انقطاع، من المحتمل أن يقع غداً الصدام مع الثوار الذين لم يشعروا باقتراب قواتنا وسيبدون مقاومة على الأقل لتمكين النساء والحيوانات من الرحيل إلى مصر والسودان.

في الوقت الذي آويت فيه إلى فراشي تسلّمت رسالة من «ساندري» هذا نصّها «بعد التحية، في يوم الغد سوف أبرهن على أن الصحافي الفاشيستي مقاتل دائم. ساندري»، لقد ولّدت الفاشية في نفوس الشباب حماساً مقدّساً ورجولياً، غداً ساندري سيقاتل ويبرهن للعدو الذي لا زال يتوهم أن إيطاليا ضعيفة كما عوّدته الحكومات القديمة، أن إيطاليا الجديدة لا تقبل أنصاف الحلول ولا الأوضاع المشبوهة بل عازمة على تحطيم جميع العقبات والتغلّب على جميع الصعوبات، ألقيت بنفسي على السرير دون أن أنام، إن فكرة الصدام القريب كانت تستولي على كل جوارحي وتتركني في ترقب محموم، إني أحسد مقاتلي الغد.

19 ينـايـر:

انطلقت أربع طائرات استطلاع بعد الساعة السابعة بقليل في رحلة استطلاعية كان يقود إحداها دوق بوليه، وعادت قرب الساعة الحادية عشر لتخبرنا أن محلة ثوار كبيرة خرجت من واحات الهوارى والهواويرى وهاجموا قوات ماليتي قرب الساعة التاسعة والنصف، وقد حذّر الدوق الكولونيل ماليتي بحركة الأعداء التي استطاع أن يلاحظها في الوقت المناسب، وظل يحلّق فوق ميدان القتال مع الكولونيل لوردي إلى أن طلب منهما الكولونيل «ماليتي» قذف واحة الجوف ومساكن التاج بالقنابل لمنع وصول تعزيزات محتملة وإحداث فوضى بين السكان الذين يستعدون بكل تأكيد للفرار في حالة حدوث الهزيمة(*).

* ـ بالرغم من آلاف الجنود المزوّدين بالمدفعية والرشاشات وأحدث الأسلحة، وبالرغم من استعمال الطيران على نطاق واسع لضرب المجاهدين بالقنابل والرشاشات وملاحقتهم ونقل اخبارهم ومواقعهم إلى القيادة، فإن الكولونيل ماليتي لم يكن واثقاً من نفسه وقواته لمواجهة بعضة مئات من المجاهدين فركن إلى وسيلة دنيئة لا يرضاها الشرف العسكري وهي قصف النساء والأطفال والشيوخ بقنابل الطائرات ورشاشاتها لدفع المقاتلين إلى الإسراع لنجدة نسائهم وأطفالهم إلا أنهم ظلوا في مواقعهم إلى أن لاقوا ربهم، وظلت النساء والأطفال تحت الأنقاض حتى نهاية المعركة...

المترجم

ومنذ اندلاع القتال قامت إحدى الطائرات بإنذار «كامبيني» قائد المجموعة الطرابلسية بالتحرك وقد توقف بقواته للراحة، وقامت الطائرات بتوجيهه إلى مسرح القتال الذي يبعد قرابة عشرة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي، وعلى ضوء ملاحظات الطيار الذي يوجه قوات كامبيني فقد كان من غير المحتمل أن تصل هذه القوات في الوقت المناسب وتشارك في القتال بسبب صعوبة الأرض ووعورتها وكثرة عوائقها.

وفي الوقت الذي ظلّت فيه طائرة تراقب مجرى القتال، فإن الدوق والكولونيل لوردي عادا لإرسال قاذفات القنابل، وتحرّكت في الحال ثماني طائرات تحمل 286 قنبلة زنة الواحدة كيلوغرامين، و50 قنبلة زنة الواحدة إثنى عشر كيلوغراماً وعاد الكولونيل لوردي بصفته مراقباً «تاركاً» مكانه للملازم «توندي» وقد وصلتنا في الساعة الواحدة والنصف المعلومات الأولى عن القتال، عادت الطائرتان اللتان كانتا هناك منذ الصباح وأصيبتا برصاص الأعداء، وقد أصابت رصاصة محرّك إحداهما وثقبت أسطوانته، وبقيت الطائرتان في مكانهما هذا الصباح، وقد زوّدنا الطيارون بتفاصيل المعارك الدائرة والتي سأخصص لها فصلاً مستقلاً لكي لا أوجز السرد، عادت في الساعة الثالثة قاذفات القنابل التي شاركت في المعركة، ونقل الكولونيل لوردي الذي هبط بطائرته إلى ساحة القتال، الملازم «بيبيتوني» Pipitone الذي أصيب بجرح في بطنه وجندي آخر أصيب تحت المعدة، وقد توفي الملازم بيبيتوني بعد نزع قصير وبعد أن قمنا جميعاً بزيارته، وقد كان شاعراً بحالته اليائسة وعبّر عن أسفه أنه أصيب في بداية المعركة، ولم يتمكن من إطلاق القذائف التي حملها.

استمر وصول التقارير عن المعركة طوال المساء، وقد علمنا أن قواتنا توقفت في هذه الليلة على مسافة ستة كيلومترات فيما وراء واحة الهوارى وسيتم احتلال الكفرة في الغد.

20 ينـايـر:

خصّصت خيمة مواد الراديو لوضع جثمان الضابط القتيل وأقيمت عليها حراسة شرف طول الليل.

في الساعة 9.10 صباحاً احتلت التاج وبعدها بقليل تمّ احتلال الجوف، انتقل الدوق إلى الواحة الغامضة وهبط بين الجنود وسيعود الليلة، غداً سيصل جثمان الملازم «هلتزل» الذي سقط على رأس جنوده الصحراويين، وسيواصل السفر إلى بنغازي ومعه الضابط بيبيتوني، طيارونا الشجعان يواصلون مطاردة الفارين ويقصفونهم بالقنابل والرشاشات(*).

عاد دوق بوليه ودعاني للسفر في طائرته إلي الكفرة وسأقوم بدور المراقب وأنا سعيد بذلك وفخور.

21 ينـايـر:

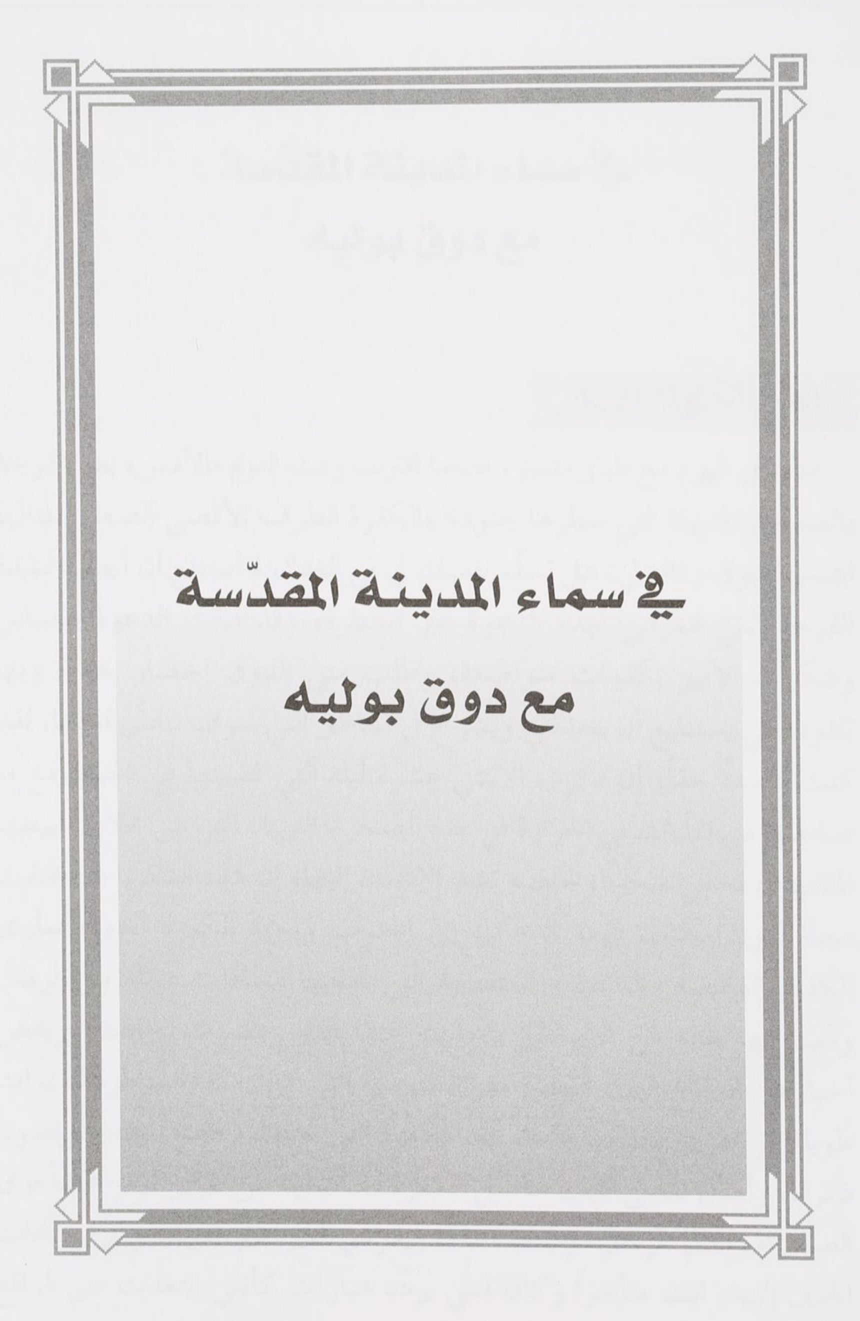
في الوقت الذي كنا نستعد فيه للسفر عاد من الكفرة الزميل ساندري بصحبة جثمان الملازم هلتزل وسيواصل السفر إلى بنغازي في حين سأبقى في المنطقة بضعة أيام أعود بعدها إلى بنغازي عن طريق الجو.

ارتدى الدوق ملابس الطيران وشرع في تجربة الأجهزة وسألتحق به في الحال ـ وأخيراً نتّجه نحو مدينة السنوسيين المقدسّة حتى وإن كان القبلي سيقوم بآخر مقاومة ضدنا، سوف ينجلي غموض الكفرة أمام أعيننا المتعطّشة للحياة والألوان بعد مضيء فترة رتيبة طويلة في الصحراء الذي خنق (القبلي فيها) الزيغن ويهدد بابتلاع الواحات الباقية على قيد الحياة..

---

* ـ يا لها من شجاعة قصف قوافل النساء والأطفال والشيوخ بالقنابل والرشاشات بعد أن فرّوا من جحيم الغارات على بيوتهم الهشة ومنازلهم وهم في وسط الصحراء لا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم أو مكاناً يلجأون إليه لاتقاء نيران الطائرات.

المترجم



في سماء المدينة المقدّسة
مع دوق بوليه

في سماء المدينة المقدّسة
مع دوق بوليه

التاج (الكفرة) 21 يناير:

سأسافر اليوم مع طيار متميز، عندما اقترب وقت النوم بالأمس، بعد الفرحة بالصفحة الجميلة التي سطرها جنودنا بالكفرة الطرف الأقصى الصعب المنال، ابتسم الدوق وقال لي: هل تسلّم نفسك لي في الغد؟، لم أستطع أن أجيب لشدة الفرحة التي غمرتني لهذه الدعوة غير المنتظرة، وقد قبلت الدعوة بحماس وشكرت الأمير بكلمات متواضعة، وطلب مني الدوق إحضار خوذة وبها تلفون كي يستطيع أن يحدّثني ويشرح لي المناطق التي سوف نحلّق فوقها، لقد كنت سعيداً حقاً، إن ذكرى الاثنتي عشرة ليلة التي قضيتها في الخيمة مع ما صاحبها من تقلّبات في الحرارة في هذه الصحراء الليبية، التي من خلال طبيعتها المقفهرة، تخفي سحراً وجاذبية تشد الإنسان إليها، إن هذه الذكريات اختفت فجأة لتترك مكانها لهفة الذهاب إلى الجنوب ورؤية الكفرة أخيراً، سأرى الكفرة الغامضة والبعيدة والمستعصية التي تحميها مسافات هائلة من الرمال وتحيط بها هالة من الأساطير يتحدث عنها الناس بصوت خافت، ويقص أخبارها الحجاج إليها، الكفرة مقر السنوسية التي كانت لها السيطرة لسنوات طويلة عن طريق تنظيمها المتعصّب، الكفرة التي تحتفظ برفات المهدي وتصون ذكراه، وأسأل نفسي كيف سأصل الكفرة؟ سأصلها عن طريق الجو محلّقاً فوق الصحراء وتلال الرمال دون أن أطأها ويقودني أمير خبر أفريقيا وعرف لمحات الحنين إليها، نمت متأخراً وكان فمي يردّد عبارات كأنني ابتعدت عن الواقع

واندفعت في دوامة الأسطورة، ضحية الرغبة في الوصول إلى هدف من الممكن الوصول إليه واقعياً إلا أن الخيال يراه بعيداً ومنعزلاً وصعب المنال، لا يمكن تحديده إلا على الخارطة مثل رأس الجبل المرتفع جداً البكر الذي لم تطأه أقدام إنسان.

استيقظت مبكراً وانتظرت بلهف ضوء النهار خشية أن يأخذني النوم ثانية فأفقد الفرصة الرائعة الوحيدة العفوية في مرافقة الامير إلى الكفرة(*).

أخذت أضواء الصباح الأولى تلوّن السماء، وشرعت في إعداد حوائجي القليلة التي سأحملها معي في الطائرة، ثم دققت النظر في الخارطة الخاصة بالمنطقة قياس 1:200000، وهي الوحيدة التي نملكها، وقد وضعها مكتب الدراسات بحكومة برقة، على ضوء المعلومات التي جمعها قلّة من الرحالة الذين وصلوا هذه الواحة قادمين من الجنوب أو عن طريق السرير، وكذلك القياسات التي قام بها الدكتور بريتسي خلال فترة أسره بالكفرة.

تبدو الكفرة بعيدة عن أي مركز حياة تعزلها عن الشمال مرتفعات جبارة تظهر على الخارطة كنقط بسيطة ومهملة.

حان وقت الرحيل وأخذ صوت المحركات يتغلب على سكينة مدينة المخيمات المتراخية والنصف نائمة حتى عندما يكون العمل على قدم وساق ويدور بصورة محمومة.

ارتديت ملابس الطيران وشرعت في اجتياز الساحة القصيرة التي تفصل بيني وبين المطار، واقتربت من طائرة الدوق الذي كان يقوم بفحصها وتجربتها بعين

* ـ نستغرب من هذه الهستيريا التي أصابت المؤلف، فالكفرة معروفة وكانت قبل حلول الإيطاليين سوقاً للقوافل التي تتولى التجارة ما بين أواسط افريقيا والساحل، وكثير من الناس كانوا يشدون الرحال لزيارتها وكانت وفود من الحكومة التركية وغيرها تأتي لزيارتها، فالكفرة لم تكن مدينة مجهولة تنتظر أن يأتي الإيطاليون لاكتشافها.

المترجم

خبيرة، ولم يتكيّف التليفون مع الخوذة التي أعطاني اياها الأمير أو مع الخوذ الأخرى التي أعطاها لي الطيارون، لأنه من نوع حديث وعملي، وأخيراً وجد الأمير الحل قائلاً استعمل جهازي وسوف نحل الأمر، وجرّبت خوذة الجلد التي قدّمها لي وكانت على ما يرام، وقد أرسل الدوق في طلب خوذة أخرى من خيمته كان قد أحضرها معه وانطلقت الطائرات بالتتابع، أوّلها طائرة الكولونيل لوردي التي كانت تحمل الجنرال غرازياني ثم طائرة الدوق ثم بقية الطائرات، ولم نجد صعوبة في الارتفاع رغم أن رياح القبلي بدأت في التحرك، وارتفعنا بصورة جيدة وبدون صعوبة، وبعد لحظات كنا نحلّق فوق عتله حيث كانت ترى بوضوح آثار القوات التي عسكرت بها لمدة أربعة أيام قبل أن تواصل رحلتها إلى الجنوب، وحلّقنا بعد قليل فوق بئر الحرش، وقد لفت الدوق نظري إلى الفجوات المائلة التي حفرتها القافلة في الرمال لسقي الإبل خلال توقفها، وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي تبدأ منطقة التلال المؤلفة من خمسة أشرطة متوازية تقريباً في اتجاه الشمال الشرقي، وتبدو مرتفعة بل مرتفعة جداً، وقد أخذت الرياح في مداعبتها بلعابها الساخن.

المنطقة عارية ومشتعلة ولكن العين تجد ما تقع عليه، لقد تلاشت رتابة السرير الواقع بين جالو والزيغن المنبسط القاحل حيث لا ترى العين أية بقعة أو أي مرتفع تسترشد به، التلال تحطم الأرض وتحولها إلى مرتفعات مستوية وإلى وهاد وتقطعها عشوائياً، إلى أشرطة مستطيلة، ويظل الريح يحركها ويغيّر ملامحها باستمرار، ولم ألاحظ إلا اليوم أن التلال الرملية تبدو تحت التأثير النظري كالمحيط الثائر، وفجأة قال لي طياري المحنّك، أنظر إلى تلك النقطة السوداء، إنها واحة بزيما الواقعة على طريق قوات «كامبيني» وشكرت الأمير وكانت عيني مركّزة على الواحة البعيدة الواقعة عند أقدام مجموعة من الروابي، إلا أنني لم أتمكن من تحديد ملامحها بسبب ضباب الصباح الخفيف.

كانت تواجهنا ريح معاكسة قوية، وقال لي الأمير سنحتاج إلى ساعتي طيران

لنصل إلى الجوف، وسرّني هذا النبأ لأنني كنت أرجو أن تطول الرحلة لأتمكن من تحديد الأماكن التي ذكرها رولفس والتي مرّ بها على ظهور الإبل في أيام لا نهاية لها.

عندما وصلنا إلى بزيما، بدت لنا هضبة كبيرة يستند إليها نتوء محدب يبرز في السرير الذي حل محل منطقة التلال وهي القارة وأبنيتها التي ذكرها بريتسي في كتابه الأخير، وكانت تقع تحت خط العرض بقليل وقد استطعت أن أحدّد مكانها على الخارطة التي بحوزتي، وكانت تقوم إلى يميننا جنوباً، مجموعة من التلال تتناثر في الصحراء، وقال لي الأمير بالهاتف إنها «قوز زبل العبد»، اسم غريب انزعج رولفس لدى سماعه عام 1879.

أخذت الطائرة تقترب من منطقة القارات الكبيرة، وهي هضاب سوداء تشبه أكواماً من الفحوم، تتخللها عروق بيضاء كأنها رشات من الجليد قد تجمّعت على جانبيها ويتخذ أغلبها الشكل الأهرامي أو المخروطي وبها بعض المرتفعات المستوية ذات اللون الأبيض الملطخ في حين كان لون الجوانب أسود لامعاً ما بين لون الأبنوس والفحم الحجري وتتناثر فوق السهل أحجار مستديرة ويبدو وكأنها هشمتها اضطرابات بركانية.

وعندما عرضت نظريتي هذه على الدوق أجابني أنها نتيجة تآكل الأرض الذي تحدثه الرياح وليست من أصل بركاني لأنه لا توجد في المنطقة أحجار بركانية، المنظر غريب جداً، ولا يمكن وصفه ويبدو كأنه طوفان بحجم توراتي (نسبة للتوراة) قد حلّ بالمنطقة وفجّر فيها كل غضبه بعد أن أباد البشر، جبال صغيرة وهضبات ومنحدرات جبلية ومرتفعات صغيرة ونتوءات انتشرت فوق السهل هنا وهناك لتبرهن على أن قوة عليا جبارة اكتسحت المنطقة، تركنا وراءنا إلى اليسار سلسلة هضبات ذات ارتفاع ملحوظ يطلق عليها الوطنيون اسم جبل الهوايش، وقد لفتت نظرنا بعد قليل مجموعة مرتفعات في الجنوب الغربي باتجاه من الغرب إلى الشرق مع انحناء خفيف نحو الجنوب وهذا هو جبل النار.

قبل أن نصل إلى قارة الهواورية التي وقع القتال فيما وراءها، أشار الدوق إلى نقطة صغيرة على الأرض كانت تنبعث منها أضواء فضية بسبب تأثير أشعة الشمس، إنها طائرة الكابتن «فتيالي» من قوة طيران طرابلس، وقد أصابها الثوار خلال القتال وهبط الطيار اضطرارياً وراء خطوطنا، وأرسل الكولونيل ماليتي دورية صحراوية لإحضار الطيار والمراقب الذي بصحبته وسوف يتم إصلاح الطائرة اليوم وسوف تلتحق بقاعدة الزيغن، حاولت أن أعثر على واحة ربيانا التي تحدّدها الخارطة على مستوانا دون جدوى، ولم أجد بداً من سؤال قائد طائرتي الذي أفادني أن الواحة لا يمكن أن نراها من موقعنا لأن جبل النار يحجبها عنا وهي تقع أكثر إلى الجنوب فيجب إذن تعديل الخارطة على ضوء القياسات التي يقوم بها الطيران في هذه الأيام والتي ستفيد في إتمام المعلومات المباشرة الضئيلة التي كانت لدينا حول المنطقة.

وأخيراً أخذت الطائرة تحلق فوق الهواورية وهي عبارة عن هضبة معزولة جانبيها سوداويين وقاعدتها تميل إلى الاحمرار في حين أن قمتها التي تبدو مستوية تماماً تميل إلى البياض، وتمتد هذه الهضبة على شكل نصف دائري واجهتها إلى الشمال ولا يمكن الدخول إليها إلا من ذلك الجانب عن طريق يشبه قناة كبيرة تبدو وعرة ومهدّمة، ويعرف ذلك الزميل ساندري الذي تسلقها ليشرف على السهل من موقع رقابة متميّز.

وظهرت بوضوح في أسفل القارة آثار الجنود الذين توقفوا في المرتفع مساء ليلة 18 يناير وغادروا قبل يومين، وقد دارت المعركة بالقرب من هذا المكان حيث توجد أكوام سوداء وكتل متناثرة من الممكن التعرّف عليها، إنها إبل مقتولة وجثث الثوار الذين سقطوا في المعركة، نظرت حولي لأعيد بناء المعركة إلا أن الطائرة أخذت تحلّق فوق الهواري الواحة الخضراء العامرة بالبساتين والنخيل والتي تتواصل في اتجاه شرق ـ جنوب ـ شرق حتى واحة الهواويرى وذلك باستثناء انقطاع بسيط، وتبدو من بين النخيل الدور والزرايب وخاصة

بواحة الهوارى التي تعتبر أكبر من جارتها، تبعد هذه الواحات عن الجوف بمسافة خمسة عشر كيلومتراً من الأرض المستوية التي تتخللها جبال منخفضة ومرتفعات صغيرة.

ولدى اجتيازنا لهذه المنطقة، لخّص لي الامير مراحل المعركة التي تتبعها من الجو وقد اضطرته الظروف أن لا يساهم بصورة فعّالة في القتال وإن كانت مساهمته ثمينة تحت عدّة أوجه، كان دوق بوليه أول من اكتشف محلة الثوار ولاحظ وجود جواد أبيض فوقه سرج أحمر مما يدل على أنه جواد أحد الزعماء، ووقف إلى جانبه ثائران يراقبان تقدم قواتنا، وبعث الدوق بهذه المعلومات إلى الكولونيل ماليتي وجنّب بذلك قواته أية مفاجأة، ومكّنها من احتلال المراكز المسيطرة والاستعداد للقتال، هذا بالإضافة إلى أن وجود الأمير شجّع الجنود الصحراويين الذين يعرفونه ويقدّرونه على البذل والعطاء(*).

تنتشر في الأرض المؤدية إلى الجوف حفر وبقع سوداء أحدثتها القنابل التي ألقيت على العدو الذي كان يحاول النجاة في قلب الأرخبيل حيث كانت تنتظره الإبل التي ستنقله إلى الطرق المؤدية إلى التيبستي ومصر والسودان(**).

وصلنا فوق واحة الجوف وانفتح أمام أعيننا منظر الكفرة الغامضة، كما ترفع الستارة في مسرح كبير، ها هي التاج بأبراجها وعنفوانها تقبع على مرتفع

* ـ منتهى التزلف والنفاق لدوق بوليه الذي أحاطه المؤلف بهالة من البطولة والإقدام وقد اقتصر دوره على لفت نظر الكولونيل ماليتي إلى وجود حصان ورجلين فوق مرتفع وظلَّ خلال المعركة قابعاً في طائرته وراء الخطوط. أما الجنرال غرازياني كان وقت اشتعال المعركة على بعد مائتي كيلومتر في الزيغن يتتبع عن طريق الراديو تطورات المعركة..

المترجم

** ـ إن الأبطال الذين تصدّوا ببنادقهم البسيطة للقوات الغازية قد قرّروا الاستشهاد دفاعاً عن شرفهم ووطنهم ولإيقاف القوات الإيطالية الكثيرة العدد والعدة من دخول الكفرة قبل أن يتمكن الشيوخ والنساء والأطفال من مغادرتها بحثاً عن النجاة في البلدان المجاورة.

المترجم

تحرس منه وهماً عظيماً وحقيقة ذهبية أغربت إلى الأبد، ها هو الجوف أخضر ومزروع بصورة جيدة وتنعكس الواحة وبساتينها على الثلاث بحيرات التي تتوّجها، معجزة زرقاء صافية في قلب الصحراء وتبدو على بعد إلى الشمال الغربي والجنوب والجنوب الغربي قرى مجموعة الواحات الأخرى، كل قرية منها قابعة في واحتها تتحدى برؤوس نخيلها ذهب الرمال الحامي.

هبطت الطائرة الأولى على المهبط المرتجل ولحقت بها الأخريات، في حين ظلّت طائرتان تحلقان فوق البحيرات التي تطوقها الخضرة الكثيفة، وتشاهدان من الأعلى الدور والبساتين والأكواخ، تصاعد دخان كثيف من الأرض لإرشاد الأمير إلى اتجاه الرياح، وقامت الطائرة بدورة واسعة فوق المطار حتى كادت أن تمس رؤوس النخيل، ثم هبطت في الحال ووقفت إلى جانب الطائرة التي سبقتها في الهبوط، نزعت الخوذة والتلفون والنظارات في حين ألقى الدوق جانباً بلباس الطيران وارتدى الملابس الصحراوية.

للوصول إلى التاج، حيث استقرت القيادة مؤقتاً، يجب تسلق مرتفع صعب بعد اجتياز جزء من الواحة والسير بالقرب من البساتين المنظمة جداً، وقد امتطينا المهارى الذي كان في انتظارنا واتجهنا إلى المدينة المقدسة لزيارة قبر المهدي.

بئر الزيغن - يناير

أنهيت روايتي عن رحلتي من الزيغن إلى الكفرة وأخذت أستعد لتدوين ملاحظاتي والأفكار التي كوّنتها حول زيارتي للكفرة، عندما اقترح عليّ سمو الدوق العودة جواً إلى الزيغن لاستقبال المارشال بادوليو الذي جاء ليرفع العلم المثلث الألوان فوق آخر جزء من مستعمرتنا الذي احتلته قواتنا المسلحة، وقد سررت للدعوة وامتطيت المهارى للوصول إلى الطائرة وكان يتبعني صحراوي

حاملاً معه رموز النصر (أعلام وأسلحة وغيرها)[1]. ورافقني بعض الطيارين، وقد سبقنا الدوق ببضعة عشرات الأمتار وقد قفز على ظهر المهارى وهو واقف في حين اعتلينا نحن ظهر المهارى وهو جالس على الأرض، وقفزة الدوق هذه على ظهر المهارى لا تصدق لو لم أشاهدها شخصياً، واستغرقت رحلتنا هذه نصف ساعة كي نصل إلى مكان الطائرات وقد تخلّينا عن الملابس الصحراوية وارتدينا ملابس الطيران وأخذنا مكاننا في الطائرات التي انطلقت بسرعة.

انطلقت الطائرات بنا من مهبط الكفرة وكانت الرياح مستقرة وتدفعنا إلى الوراء بحيث نتوقع الوصول إلى الزيغن في مدة ساعة، وسلكنا طريق الصباح وقد لاحظنا ما بين الجوف والهوارى مجموعة من الرجال يرتدون الجرود البيضاء ومجموعة من النساء يرتدين الأردية الملوّنة، إنها مفرزة من رجالنا الصحراويين يعودون بعد تعقّبهم للفارين ومعهم مجموعة من النساء اللاتي استسلمن أو أسرن أو تعبن من الرحلة الشاقة في الصحراء.

أكرر النظر إلى ميدان المعركة وأرى تحتي الطائرة الجريحة تحوط بها مفرزة من الهجانة في الوقت الذي كان يجري فيه العمل لإصلاح الخلل، إنه منظر لا يخلو من مغزى / حراسة الإبل لأحدث واسطة نقل وهي تعالج في الصحراء، وأخبرني الدوق أن اهتزازاً سيحدث بسبب رياح قادمة من الشرق فهل يزعجك

1 - يا له من نصر هزيل ويا لها من اعلام ورموز نصر؟ انها تبعث على العار لا على الافتخار لقد أراد الإيطاليون إحياء المعارك الصليبية القديمة عندما كانوا يعرضون الأعلام والأسلاب التي يستولون عليها من العدو في المتاحف والكنائس ولا تزال الأعلام التركية التي استولت عليها القوات المسيحية المتحالفة في موقعة ليبانتو بقرب اليونان عام 1571 معروضة في إحدى كنائس إيطاليا، وفي كل عام يحتفل بهذه الذكرى، ومن يقرأ ما دونه المؤلف يشعر كأن إيطاليا انتصرت على دولة كبرى لا على حفنة من الأبطال آثروا الموت على تسليم آخر قطعة من بلادهم إلى العدو دون قتال، وكان الأجدى بالمتنصرين أن ينقلوا إلى المارشال بادوليو القادم من طرابلس ليشارك في النصر جثث الأطفال والنساء والشيوخ الذين مزّقتهم قنابل الطائرات الإيطالية وهم آمنون في مساكنهم.

المترجم

ذلك فأجبته إنني حتى الآن لم أشعر بتعب وأرجو أن يستمر ذلك فلقد تجاوزت الثلاثين ساعة طيران في برقة فقال لي سأحاول التخفيف من اهتزاز الطائرة وانطلقنا بسرعة رغم تأرجح الطائرة الذي لا بد منه، ووصلنا بزيما قبل الوقت المتوقع، وارتفع الدوق بطائرته فتحسن الحال ثم قال لي فجأة هل ترى تلك النقطة السوداء؟، إنها بئر الزيغن وسنصل إليه قبل نصف ساعة وبعد دقائق طلب مني الاستعداد للهبوط، وهبط الدوق بمناورة بارعة على أرض رملية صلبة، وتوقفت الطائرة بعد أربعين متراً وبعد سكوت المحرك ونزع الخوذات سألت الدوق عن سبب الهبوط المفاجئ، فقال إن الزيت نزل إلى الصفر وأردت أن أتحاشى عطباً أكبر وقد درست الأرض في الأيام الماضية وكنت متأكداً من الهبوط في المكان المناسب وسألته كيف عرفت اتجاه الرياح دون دخان فقال عرفته من تموجات الرمال وأدركت أين تتجه الرياح، وهبطت في أثرنا الطائرتان الأخريان وهرع الطيارون إلى الدوق فوجدوه منهمكاً مع الفني في إصلاح عطب الطائرة، وعاد محرك الطائرة إلى العمل بعد تسريح صمام الزيت، وعادت القياسات إلى عملها.

وأخذنا صورة فوتوغرافية تذكارية ثم ذهبنا إلى مكان الإقلاع في انتظار لحاق الطائرتين الأخريين بنا، إلا أن طائرة الملازم «فاتيللي» قد غرست عجلاتها في الرمال، فنزل الدوق والآخرون وأعطوا دفعة للمحرك ودفعوا الطائرة بقوة فتخلّصت العجلات من الرمال ولم تمضِ سوى لحظات حتى كنا نحلّق في الجو. وذلك في الوقت الذي رأينا فيه طائرة قادمة من الزيغن للبحث عنا حيث قلق الجميع لتغيّبنا بسبب قرب الغروب وعدم استعداد المطار لقبول طائرات في الليل.

وخلال اجتيازنا لآخر مجموعة من التلال بدأت الشمس في الغروب وأخذت الرياح تداعب مؤخرة الطائرة بلطف، والتفت الدوق إليّ وقال

بلطف، أنظر إلى الرمال، إنها تشبه الجليد، وقد نسي الحادث الذي مررنا به وعاد إلى مرحه وإلى إعجابه بهذا الجمال المتوحش وبالمناظر الصحراوية، وقد وصلنا بعد 20 دقيقة إلى الزيغن، وهبط الدوق ببراعة فوق الأرض الرملية، وكان الظلام بدأ ينتشر وبدأت النيران الأولى تشتعل، وآويت إلى خيمتي لأستعرض في صمت أحداث هذا اليوم، إن الصحراء تفيد الجسم وتعيد الشباب إلى النفوس وتجعلها أكثر بساطة وتهدئ الأعصاب المتوترة بسبب المشاغل المستمرة، إن عودة الإنسان إلى مصادر الحياة تقرّبه من الله(*).

* ـ ذهب المؤلف لاستقبال المارشال بادوليو، كما يقول، ثم لا يتحدث إطلاقاً عن المارشال حاكم ليبيا ولا عن حفلة العلم الإيطالي فوق الكفرة، بل يمر مرور الكرام على زيارة بادوليو، وهذا دليل على الغيرة والتنافس بين بادوليو وغرازياني إذ أراد كل منهما أن ينسب لنفسه هذا النصر الهزيل، وقد جاء بادوليو إلى الكفرة كي لا يترك كل هذا المجد لغرازياني وحده، فالمؤلف يخصص مساحة لا بأس بها من كتابه للحديث عن رحلة مهارى الدوق من غات إلى الكفرة ولا يخصص كلمة واحدة عن مارشال ايطاليا الأكبر وحاكم ليبيا ويتجاهل تجاهلاً تاماً زيارته للكفرة.

المترجم

القفز ما بين الجوف والتاج

القفز ما بين الجوف والتاج

التاج - يناير :

كما ذكرت في الفصل السابق إنه بعد النزول بالطائرة في مهبط الجوف الذي لا يمكن تحديد مكانه بين النخيل إلا بمساعدة كمّ القماش الأحمر والأبيض المعلّق في إحدى النخلات لمعرفة اتجاه الريح، فكان علينا قضاء ساعة على ظهر المهارى للوصول إلى التاج قلعة السنوسية.

الجوف ومعناه بالعربية القلب أو المركز، يقع في وسط مجموعة واحات الكفرة الداخلية في رقعة مستوية عامرة بالبساتين والنخيل وحقول الشعير والقصب، أما التاج فترتفع فوق هضبة يقارب ارتفاعها المائة متر وتطل على السهل الذي تحتها، وترتفع عن سطح البحر قرابة 175 متراً، وتظهر للناظر إليها من تحت كأنها قلعة محصّنة مستعدة لصد أي هجوم، فقد أحاط بها سور مرتفع مشيّد بالحجارة الحمراء الداكنة ذات العروق الخضراء والزرقاء والبنفسجية وهو يحدّد موقع الزاوية من الجنوب - وفي الطريق إلى التاج يجتاز القادم ممراً تكسوه الخضرة والنخيل يتصل بعد سير نصف ساعة بالمنحدر الصعب الذي ينقلنا إلى المرتفع الحجري حيث يتلاشى الوهم ونجد أنفسنا أمام قرية صحراوية عادية تعوّدت عليها العين منذ زمن.

وأود الآن أن أتحدث عن موضوع آخر وهو المهارى، فهذا الاسم اللطيف يحدد النوع الممتاز والنبيل من بين مجموعات الإبل العادية، وقد أرسل إلينا

الرائد «كامبيني» قائد القوات الصحراوية الطرابلسية عدداً من المهارى التي نستعملها حالياً ويسيطر عليها في الارتفاع والجمال مهارى الدوق، وقد قطع المهارى ستمائة كيلومتر من غات إلى واو الكبير لينضم إلى المجموعة الذاهبة إلى الكفرة، في حين أن الدوق سافر من طرابلس للالتحاق بالحملة في اجدابيا، وواصل مهارى الدوق رحلته فقطع 750 كيلومتراً من واو الكبير إلى تمد بوعشيشة وتازربو ليصل الجوف ليكون تحت تصرّف صاحبه الأمير. وقطعت المهارى المائة متر الأولى مهرولة بشكل مزعج ومتعب للعظام بحيث أن الراكب كان يشعر كأنه على ظهر برميل وأنه على وشك السقوط.

مررنا بمجموعة من الزراريب تحيط بها حقول مزروعة وقد نضجت خضرواتها قبل أوانها ودخلنا واحة الجوف بعد اجتياز الزراريب في الاتجاه الشمالي الشرقي واتجهنا إلى مرتفع التاج، كان معنا في الرحلة بالإضافة إلى الأمير الجنرال غرازياني الذي جاء ليهنئ قواته بانتصارها، وقد واصلنا السير على مهل محاذين المرتفع، إلا أن الصعود كان صعباً والأرض رملية لا يستطيع المهارى السير عليها بسرعة.

أخذنا نقترب ببطء من القمة عن طريق ما يشبه القناة غير المستقيمة تتجمع فيها الرمال والأحجار، حتى أشرفنا على السهل المتموّج قليلاً والذي يمتد على كل سطح الهضبة التي كانت خالية من الحصيات والأحجار والرمال الخفيفة التي تغطي أجزاء من الأرض، كان يرتفع إلى يسارنا الجدار الذي شاهدناه من الأسفل تسيطر عليه مئذنة المسجد الذي يضم قبر المهدي.

يدور كلام كثير حول قبر المهدي وهل يضم فعلاً رفاته ولا زال حتى يومنا هذا معظم العرب يعتقدون أن القبر خاوٍ، ويشاركهم في هذا الاعتقاد خمسة من الأوروبيين الذين استطاعوا خلال قرون الدخول إلى أرخبيل الكفرة المحرم والذي يغلّفه جو من الأسطورة والغموض، ومن بينهم الدكتور بريتسي،

ونستثني منهم الرحالة رولفس الذي زار الكفرة في الوقت الذي كان فيه السيد المهدي في الجغبوب، وقرية التاج لم تشيّد بعد، أما روزيتا فوربس، وبرونو دي لابوري، ينقلان ما سمعاه ولا يضيفان شيئاً، ويصمت «لابيير» عن هذا الموضوع ولا يذكره.

وكتب «بريتسي» الذي أقام في الكفرة مدة أطول من الرحالة الذين سبقوه ما يلي: «وقد استطعت أن أزور الزاوية المقدّسة حسب رغبتي وأن آخذ لها صوراً، وهي تضم القبر المنسوب إلى المهدي ابن مؤسس الطريقة السنوسية، أقول منسوباً إليه لأن القبر لا يضم رفاته. غير أن الجميع ينتظرون بإيمان أن يبعث مثل المسيح من أجل مجد الإسلام، إن مقبرة المهدي الحقيقية قد دمّرها الفرنسيون في أفريقيا الاستوائية بعد أن انتزعوا من السنوسيين مناطق «اونيانقا» و«انيدى» و«اردى»».

وهناك سوء تفاهم في هذا الصدد، فمقبرة المهدي الوحيدة المعروفة هي مقبرته في التاج، والشك إذا كان هناك شك، يتعلق بالتساؤل هل القبر يضم الرفات أم لا تزال الرفات بدون دفن (انتظاراً لنقلها إلى الجغبوب) أما الذين يقولون بخلو مقبرة التاج من رفات السيد المهدي، يستندون على فكرتين متناقضتين، فالعرب يقولون إن السيد المهدي استشهد في معركة حامية ضد الفرنسيين، وقد رفعه الله إليه، في حين يقول الآخرون إنه من غير المعقول أن ينقل جثمان المهدي لمئات الكيلومترات من موقع استشهاده إلى مكان قبره الحالي، فمن من الطرفين على حق؟ أما نحن فإن وجهة نظرنا تستند إلى تصريحات وجيه غير متحيّز واسع الثقافة بأن الطرفين المذكورين على غير حق، إن السيد المهدي مدفون في قبره بالتاج بصورة أكيدة، وهذا الوجيه هو الشيخ العربي السنوسي الشارف الغرياني، الذي رافقنا من بنغازي إلى الزيغن، فقد وضّح لي هذا الأمر بكلمات قليلة أقنعتني، فالسيد المهدي بعدما استشهد في معركة ضد الفرنسيين أعدت نقالة وضع عليها جثمانه، ووضع فوقه غطاء

مطرّز بالزهور ثم نقل إلى الكفرة حيث دفن في زاوية التاج التي شيّدها والده السيد محمد بن علي السنوسي بعد انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة.

وقد أطلق السنوسيون أسطورتين بخصوص وفاة السيد المهدي، الأولى دينية صوفية تتحدث عن اختفائه والأخرى ذات طابع تجاري عملي تؤكد وجوده في قبره بالكفرة وبالرغم من أنها تؤثر جزئياً في الهالة المقدّسة التي تحيط بالسيد المهدي، غير أنها ظلّت على مدى سنين طويلة تجذب الحجاج الذاهبين إلى مكة من أماكن بعيدة ليمروا على الكفرة للزيارة ويقدّمون للإخوان الهدايا والعطايا، ونتقبل الصيغة التي نقلها إلينا الشارف الغرياني، ونعود إلى اللحظة التي قام فيها الرجال الذين رافقونا بإنزالنا من على ظهور المهارى(*).

سبقنا الجنرال غرازياني ببضعة أمتار ليستعرض سرية الشرف التي اصطفت بالقرب من جدار الزاوية، ثم توجهنا جميعاً نحو الزاوية عن طريق ساحة صغيرة ودخلنا المكان الذي به ضريح السيد المهدي، وهو عبارة عن غرفة مستطيلة ليست بالكبيرة، علّقت في سقفها ثريتان من الزجاج وتزيّنها تحف صغيرة وكور زجاجية ملوّنة وبيض نعام مشغول بالجلد وجميعها تتدلى من سقف شيّد بجذوع النخيل وغطى بالحجارة والرمال والجير، وبالرغم من عداء المسلمين للصور والتماثيل البشرية فقد علّقت على جدران الغرفة صورة خديوي مصر

* ـ من عادة الكتّاب الأوربيين عندما يكتبون عن الشرق والمستعمرات أن يلوّنوا كتاباتهم بالقصص الغريبة والأساطير ليعطوا طعماً لما يكتبون، وكتب الدكتور فؤاد شكري في كتابه (السنوسية دين ودولة) ص 94 يقول: (ولكن لم يكن مقدراً للسيد محمد المهدي أن يشهد حوادث هذا القتال الأخير «حرب واداي» فقد وافاه القدر المحتوم فجأة وهو في ـ قرو ـ في 23 صفر 1320هـ، 1902/6/2 ونقل جثمانه الطاهر إلى الكفرة وبذلك انتهت حياة عظيم).

وكتب الأستاذ محمد الطيب الأشهب في مؤلفه ـ المهدي السنوسي ـ صفحة 74 ما يلي: (في صبيحة يوم الأحد 24 من صفر 1320 هـ، 1902/2/6 قبضه الله إليه راضيا مرضياً عنه وصعدت روحه الطاهرة لأخذ مكانها في أعلى عليين... وبعد انتهاء الحرب عادت العائلات السنوسية إلى الكفرة وقد تخلف في السودان السيد أحمد الريفي مدة من الزمن عاد بعدها يحمل جثمان السيد الإمام إلى الكفرة).

المترجم

السابق وصورة مريم العذراء بالألوان الزيتية وآيات قرآنية نقشت بأحرف من ذهب على لوحات فضية.

لا يتميّز قبر المهدي عن غيره من القبور الكثيرة إلا بغطائه المطرز بالزهور وهو ربما نفس الغطاء الذي وضع على تابوته عند نقله من التشاد إلى الكفرة قبل أربعة وعشرين عاماً ويوجد باب مواجه للمدخل يؤدي إلى المسجد الكبير القائم على أعمدة رباعية وقد غطيت أرضه بالحصر وازدانت جدرانه بآيات قرآنية ولوحات فضية وساعات غير صالحة كانت تتبع في الماضي وربما إلى وقت الاحتلال توقيت اسطمبول ومكة، ويتصل المسجد بالمئذنة الرباعية عن طريق درج ضيّق يستعمله المؤذن لدعوة الناس إلى الصلاة.

خرجنا من الزاوية عن طريق باب صغير وقد تأثرت أعيينا بضوء الشمس الذي لا يرحم وقاربت الساعة العاشرة واشتدت الحرارة، غير أننا زرنا التاج في أقل من نصف ساعة وتتكوّن من قرابة خمسين داراً مشيّدة بالحجارة والجير وبكل منها ساحة، وكنا نرى بين الحين والآخر منازل هدمتها قنابل طائراتنا.

الشعير والتمر متوفران في كل البيوت بكثرة، مما يدل على خصوبة الأراضي المحيطة بالتاج، واتجهنا بعد ذلك لزيارة ترسانة السلاح السنوسي الموجودة في منزل داخلي أي بدون منفّذ على الطريق، وتتطلّب الوصول إليها المرور من عدّة ممرات، وقد وجدنا في ساحة صغيرة ثلاثة مدافع عيار 70 مقامة على قاعدة عادية بدون جهاز الإطلاق وهي لا تزال صالحة للاستعمال، وكانت الذخيرة متوفرة ومنتشرة على الأرض، وكانت إلى جانب المدافع عشرات العلب الحاوية على قطع غيار البنادق القديمة جداً، وكانت توجد في أحد الأركان مجموعة من الأسلحة النارية من جميع الأنواع والعهود، كما كانت توجد في ساحة صغيرة متصلة بالقاعة الأولى مجموعات من البنادق وأكوام من السيوف التركية والتارقية والمصرية، وكان هناك في وسط الساحة ثلاثة رشاشات «ماكسيم» إثنان منها في حالة جيدة جداً، وأعداد من المسدسات المصنوعة في الجبل الأسود

وبنادق مغربية طويلة، وتناثرت على الأرض مسدسات تطلق بالإشعال الحجري (بوصوانه) وأخرى عادية، وتولى اثنان من الهجانة جمع هذه الأسلحة ووضع قائمة بها، يا لها من ترسانة بائسة التي أراد السنوسيون تسليح المؤمنين بها لمقاومة قوات الكفار[*]، ووصلنا إلى المخرج ونحن نقفز فوق اكوام من الخرطوش الذي جاء عبر الصحراء من جميع انحاء افريقيا، ولاحظنا في أحد أركان الساحة مجموعة من الرماح النحاسية ذات الرؤوس الحديدية وقد غلّف مقبضها بالجلد وهي رماح التبو القديمة.

الكفرة الغامضة الصحراوية درة الله وقلعة السنوسية البعيدة المحرمة، لم تكن أكثر من سوق قديم جمعت فيه بقايا أسواق الشرق ووضعت في دورها تحت رعاية المهدي.

اخضرار الطبيعة يرمز إلى استمرار الحياة من خلال امتداد الواحات لكيلومترات عديدة تقطع رتابة الصحراء الباهتة رغم أن هذه الواحات تبدو لا شيء في هذه الصحراء اللامتناهية، فالحياة تتواصل وتتجدد وتتغيّر لعبة القوى المتضاربة أبداً والمتآلفة أبداً في تنسيق سامٍ، وهنا على قمة الهضبة التي تحد وادي الكفرة تقبع المدينة الخالدة الراسخة والكاسرة التي اعتقد بعض الناس أن حصونها الصحراوية تجعلها في مأمن ولن تغلب.

عادت الكفرة إلى الحياة الحرّة وألغي الرق تحت وطأة انتصارنا، واستعادت اسمها الأصلي وأصبحت بيد الكفار[1]، أما السنوسيون الذين ظلوا على قيد

* - هذه الأسلحة التي يسخر منها المؤلف قد قاومت إيطاليا طوال عشرين عاماً وألحقت بها الهزيمة تلو الأخرى وجعلتها أضحوكة أمام العالم.

المترجم

1 - لم يدر برأس المؤلف أبداً أنه بعد عشر سنوات فقط ستخرج إيطاليا من الكفرة مهزومة وأن أهلها سوف يعودون إليها منتصرين ويجعلون منها منطقة هامة في الدولة الليبية الحرّة المستقلة التي احتلّت مكانها بين الأمم بجدارة.

المترجم

الحياة فقد فرّوا بحثاً عن النجاة وعن خيمة تأويهم في الجنوب أو الشرق، فالأمل وحده لن يساعدهم في فرارهم ولن يقدم لها الزاد في رحلتهم الشاقة.

خرجنا إلى الخلاء والشمس والهواء النقي بعيداً عن الأحلام والأسرار التي تلاشت لقد تكلّم أبو الهول واطلعنا على بساطة نفسه الصحراوية التي تداعبها رياح الجنوب وتنقل إليها شذى عطور الغابات الساخن.

رأيت الجنرال غرازياني في الجهة المواجهة للزاوية، يتحدث إلى شيخ ذي لحية بيضاء طويلة وإلى شاب لا لحية له، الأول هو الوجيه البنغازي الشارف الغرياني، والثاني أحد أفراد العائلة السنوسية الذي لم يغادر الكفرة وهو حسونة الخطابي أخو شمس الدين وحفيد ادريس، ويبلغ التاسعة عشر من عمره، غير أن وجهه الذي لا لون له لا يسمح بتحديد سنّه فقد أثّر فيه حبّه لنسائه وسلب لبّه، فأحياناً يبدو أنه غارق في أفكاره، ويحرّك عينيه بسرعة ويضغط على شفته العليا التي يضللها شارب خفيف يتّجه نحو ذقنه، وكان يتحرّك بين الحين والآخر ويتكلّم بصوت خافت ثم يعود إلى سكوته، وعلمت أن الجنرال غرازياني أبلغه أنه سينقله معه إلى بنغازي، فأبدى تذمّره بنفس الصوت لأنه سيغادر داره ونساءه، وقد انزعج عندما ركب الطائرة فيما بعد، وكان يدعو الله أن يحفظه في رحلته على الطائر الميكانيكي.

لم أشر خلال سردي للأحداث والانطباعات إلى حفل قصير مهيب قمت به صباح اليوم عندما وطأت أقدامي ساحة التاج التي تعتبر قلب واحات الكفرة، ففي الوقت الذي كان فيه الجنرال غرازياني وبصحبته الكولونيل ماليتي وبقية الضباط يقوم بزيارة لمخيمات قوات الاحتلال فقد صعدت إلى أعلى مئذنة الجامع التي كان يرفرف عليها العلم الإيطالي الذي رفع فوقها وقت الاحتلال[1]،

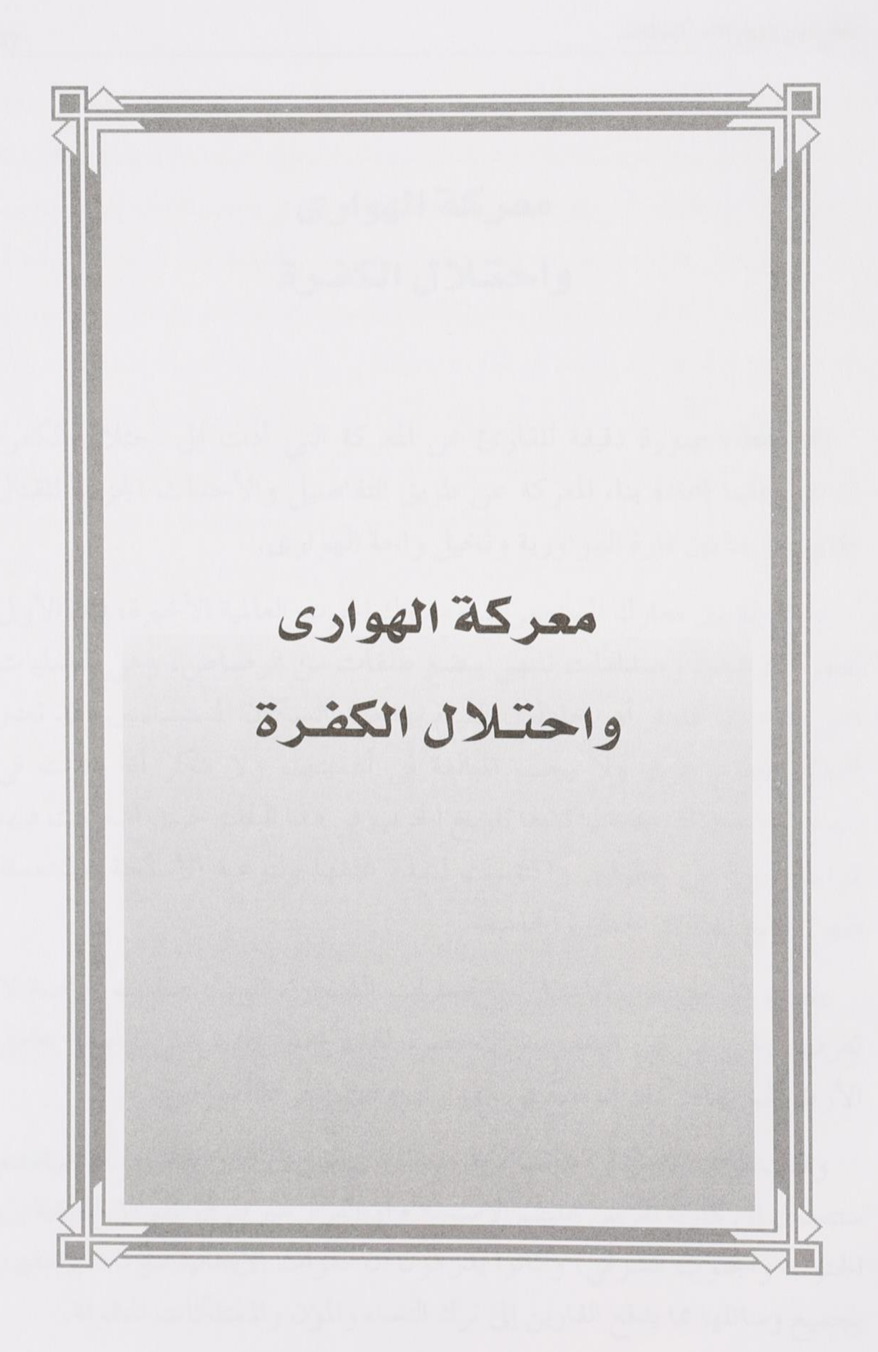
١ ـ العلم الإيطالي الملكي كان يحمل صليباً في وسطه، ورفع الصليب فوق مئذنة المسجد دليلاً جديداً على مدى احترام إيطاليا لعقيدة مسلمي ليبيا كما كانت تزعم.

المترجم

والذي سيبدل بعلم رسمي عندما يقع الاحتفال برفع العلم، وقمت برفع بيرق أسود به شعار الليتوريو (العلم الفاشيستي) الذي أحضرته معي من بنغازي، وقد اقتربت الشعلة السوداء لعدة دقائق من العلم الإيطالي كأنها ترمز إلى وحدة الأهداف، إن الإيمان المشترك والاتفاق الذي يبرز حيثما يذكر اسم إيطاليا، فهو يسيطر أيضاً على العلاقة بين القمصان السوداء (الميليشيا الفاشيستية) والجيش النظامي.

ذهبت لتناول طعام الغداء في الخيمة المخصصة لتناول الطعام التابعة للتجمع الثالث الصحراوي، التي سيتناول فيها الدوق أيضاً طعامه، وكنت ضيفه المحظوظ، ودار الحديث خلال الطعام، عن كل شيء عن الزحف والصعوبات التي واجهناها وعن المعركة وصلابة وعناد الثوار في مقاومتهم وعن غموض الكفرة.

وأتخيّل الآن عبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد بومطاري الزعيم المتغطرس وهما يفرّان عن طريق العوينات وهما ما تبقى من انهيار ابتلع عالماً غارباً ومزّق الأستار التي كانت تلف الكفرة الغامضة...



معركة الهوارى
واحتلال الكفرة

معركة الهوارى
واحتلال الكفرة

إن إعطاء صورة دقيقة للقارئ عن المعركة التي أدّت إلى احتلال الكفرة تفرض علينا إعادة بناء المعركة عن طريق التفاصيل والأحداث الجزئية للقتال الذي دار ما بين قارة الهواورية ونخيل واحة الهوارى.

بالمقارنة بين معارك المستعمرات ومعارك الحرب العالمية الأخيرة، فإن الأولى تعتبر مناوشات وصدامات تنتهي ببضع طلقات من الرصاص، وهي العمليات التي يقوم بها الثوار أو يحاولون القيام بها ضد السكان المستسلمين وقد تعتبر أعمال قطاع طرق ولا يجب المبالغة في أهميتها، ولا ننكر أنه دارت في المستعمرة معارك جدية يؤكدها تاريخ الحرب في هذا البلد، حيث اشتركت فيها قوات كبيرة من الطرفين واكتسبت لشدة عنفها ولنوعية الأسلحة المستعملة فيها، طابع المعارك الخطيرة الحاسمة.

يجب الأخذ بعين الاعتبار أن عمليات الصحراء تتسم بصفات خاصة لا تعرفها الحروب بين الشعوب المتحضرة لعدة اعتبارات، على رأسها عامل الأرض ثم المياه. كان الوضع في الهوارى وقت المعركة كما يلي:

وقفت قوات الثوار في جانب تريد صدّنا بأي ثمن، وكانوا يعلمون أن هزيمتهم ستتحوّل إلى كارثة تفرض عليهم الاستسلام أو الفرار عبر طرق القوافل المؤدية إلى الجنوب والجنوب الشرقي، وكانوا يدركون أن القوات الإيطالية سوف تلاحقهم بجميع وسائلها مما يدفع الفارين إلى ترك النساء والمؤن والممتلكات المنقولة.

وتقف في الجانب الآخر قواتنا المتفوّقة في الأسلحة النارية، إلا أنها لا تتفوّق كثيراً في العدد(*)، وأن عوامل الكرامة والنفوذ والمبادئ وأسباب الحياة نفسها تفرض عليها التغلب على الخصم لأن هزيمتها على سبيل الافتراض، تدفعها إلى التفكير في المياه المتوفرة على بعد مائتي كيلومتر في الزيغن وهي القاعدة التي يجب أن تعود إليها بعد الانسحاب لتنظيم صفوفها، وهناك أيضاً أربعمائة كيلومتر تفصل الزيغن عن جالو، وقد أصاب الجنرال غرازياني بإعداد قافلة تحمل مياه احتياطية لسد الحاجة في حالة إطالة المقاومة المعادية أو فوز الزوية بانتصار جزئي بالإضافة إلى أن الأرض الممتدة أمام واحة الهوارى تتخلّلها كما سبق أن ذكرنا شقوق ووديان صغيرة ومرتفعات وهضبات صغيرة تساعد على المقاومة القصوى حتى وإن كان العدو متفوقاً عدّة وعدداً.

لقد قدّمنا صورة عامة عن مسرح العمليات المقبلة إلا أنه يجب أن لا ننسى أمراً يحتل المكان الأول في عملية احتلال الكفرة وهو المفاجأة، لقد كوّن الزوية والثوار الطرابلسيون بالإضافة إلى بعض العبيد وعناصر أفريقية أخرى الجيش الحامي للكفرة. وقد تجاهلوا دائماً عزمنا الثابت على دفع احتلالنا حتى واحات الكفرة، ولم يهتموا كثيراً بالغارات الجوية وعمليات الاستكشاف الصحراوية لاقتناعهم بصعوبة القيام بحملة كهذه تخترق الصحراء القاهرة للوصول إلى الكفرة، وسيطرت عليهم هذه القناعة فلم يحتاطوا بوضع مراقبين في الزيغن لاطلاعهم على تحركاتنا، وقد وصلت قواتنا إلى آبار الزيغن دون أن يشعر بها العدو وربما ظل في جهله لتحركاتنا لولا أن أحد المواطنين فرّ من تازربو وقت وصول المجموعة الطرابلسية إليها بقيادة «كامبيني» وتمكّن من الوصول إلى الكفرة ونشر الخبر، وأخبر بما شاهده بأن حملة تتألف من قرابة ثلاثمائة رجل وصلت تازربو وربما تكون في طريقها إلى الكفرة. واستعد زعماء المقاومة عبد

* ـ اعترف المؤلف من قبل أن عدد المجاهدين لا يزيد عن بضع مئات.

المترجم

الجليل سيف النصر وصالح لطيوش وعبد الحميد بومطاري لمواجهة الحملة الصغيرة نسبياً يدفعهم الأمل في القضاء عليها واقتنعوا بإمكانية إبادة هذه القوة الصغيرة وذلك بالتمركز في المواقع المسيطرة، ولم يدر بخلدهم أن قوة أخرى سوف تأتي من جالو إلى بئر الزيغن وتتجه إلى نفس الهدف. ودفع هذا الأمل الخطير زعماء الثوار إلى وضع خطة لا تخلو من عبقرية تسبّبت في هزيمتهم بسبب تدخل القوات الأخرى التي لم يتوقعوا وجودها، فعندما هاجم الثوار طلائع قواتنا المتقدّمة من قارة الهوارى صوب واحة الهواويرى كانوا يظنون أنهم يواجهون الدوريات الاستطلاعية للقوات الطرابلسية التي كانوا على علم بها، إلا أنه عندما دخل المعركة القسم الأكبر من قواتنا أدركوا أخطاءهم بعد فوات الأوان وخاصة عندما وصلت القوات الطرابلسية بإرشاد الطائرات لمساعدة القوات البرقاوية، وقامت بمهاجمة الجانب الأيسر للثوار الذين أرادوا الانسحاب الذي تحول إلى هزيمة وفرار.

ولنواصل سرد الأحداث بنظام: ـ وصلت قوات ماليتي إلى الهوارى ليلة 18 يناير ولم تكن تعرف شيئاً عن نوايا الزوية ولا عن الوضع في الكفرة، فقد أتـمّت رحلتها في هدوء ودون أي إزعاج، وننقل فيما يلي فقرة من تقرير ساندرى الدقيق في هذا الخصوص:

«أفادتنا آخر الاستطلاعات الجوية بوجود قوات كامبيني الطرابلسية على بعد ثمانين كيلومتراً منا، وما علينا الا انتظار الفجر مع الحذر، وأفادتنا نفس الطائرة قبل عودتها إلى الزيغن بأنه لا يبدو هناك أحد في واحات الهواويرى والهوارى سوى بعض الإبل في السياج وبعض الرجال بين النخيل، وفي الجوف يرفع الناس عباءات بيضاء»، كانت الرسالة مطمئنة، الا أنه بعد تركيب جهاز الراديو تسلّم الكولونيل ماليتي رسالة من الجنرال غرازياني هذا نصّها: «عادت طائرة الاستطلاع إلى القاعدة وقد اخترق جناحيها رصاص الثوار أوصي بالحذر الشديد وإلى الأمام مهما كان الثمن»، وصدرت التعليمات بخصوص

الحذر في الليل وقد حلّ الظلام كالعادة سريعاً، فهل يدور القتال غداً أم في هذه الليلة؟ لا أحد يستطيع الإجابة بدقة على هذا التساؤل، ومن المؤكد أن التفاؤل الذي سادنا من جالو وفيما بعدها قد تلاشى الآن»، وعند الفجر قبل الشروع في التقدّم أرسل الكولونيل ماليتي بعض الضباط ليراقبوا من فوق قارة الهوارى الأرض المواجهة، أترك للزميل ساندرى الذي شارك في عملية المراقبة هذه وصف المنظر:

«الصعود بين الأحجار متعب جداً وخاصة في الجزء الأخير حيث أجبرنا على المرور عن قناة كبيرة ثم الصعود على الجانب المرتفع، ولما بلغنا سطح القارة رأينا شروق الشمس إلى جانبنا الأيسر وقد غمرتنا بأشعتها الذهبية، وكان المنظر من هذا الموقع جميلاً جداً وكنا نرى إبل المجموعة الصحراوية وهي تبدو لا شيء في هذا الاتساع الهائل، وقد بدا أمامنا خط نخيل واحتي الهواويرى والهوارى، ثم بدت في الأفق على بعد الكفرة بنخيلها الأخضر وبين الجبال السوداء والرمال الخالدة وهي تبدو صغيرة في هذا الفراغ الهائل المليء بالصخور والرمال وقد غدت الآن قريبة منا بعد هذا الجهد المضني، واستعملنا المنظار المكبّر بصبر وإصرار لنكشف مجموعة «كامبيني» الطرابلسية وأخيراً صاح الملازم «بنشيفنقا» ها هم قادمون بين الرمال والقارة وكانوا عبارة عن نقطة سوداء تتحرك في هذه الصحراء اللامتناهية، وقد ميّزنا أغطية رؤوس الهجانة البيضاء وهي تتلاعب بها الرياح فوق الرمال الصفراء، وبعد قليل انحدرنا صوب المعسكر لتزويد الكولونيل «ماليتي» بالمعلومات التي تحصلنا عليها».

أخذ الجنود يتحرّكون إلى الأمام دون أن تلاحظ أي شيء غير عادي، غير أن الكولونيل «ماليتي» على سبيل الحذر، قام بتوسيع وزيادة عدد الجنود الحامية لجانبي القوة الزاحفة فوق الربى الجانبية للسيطرة على كل السهل الذي تتقدّم فيه القوات.

بعد مرور ساعة من تحرّك الجنود، وصلت أربع طائرات من الزيغن برئاسة الأمير والكولونيل لوردي وقد انخفضت قليلاً واتجهت نحو الجنوب للتحليق فوق الواحة وتفتيشها من الأعلى لمعرفة نوايا العدو، وقد تجاوزت الجوف وحلّقت فوق التاج ثم عادت وألقت برسالة إلى الكولونيل «ماليتي» جاء فيها:

«تبدو الواحة خالية من الرجال، إلا أن وجود الإبل داخل السياج والجرود المعلّقة في الساحات دليل على وجود الرجال، رجلان وحصان يقفون عند طرف النخيل فوق أحد المرتفعات»، ليس هناك حتى الآن ما يدعو للقلق وقد واصلت القوات سيرها على أرض صلبة صخرية تتخللها قطع رملية وهضبات صغيرة سوداء وحمراء وقد أخذ السهل يتجه إلى انحدار خفيف بداية من الهواورية، وذلك ما يفسّر عدم صعود مياه الواحات الداخلية نحو الشمال وبقائها محجوزة في منطقة محدّدة كأنها في قعر كيس، واصلت الطائرات تحليقها فوق المنطقة، وقامت أيضاً بالتحليق فوق التجمع الطرابلسي وأفادت أنه يبعد قرابة ستة كيلومترات عن التجمع البرقاوي، إلا أنه يحتاج إلى ضعف المسافة بسبب وعورة الأرض والبحث عن المسالك، وعندما اقتربت الساعة من العاشرة وبعد ثلاث ساعات من المسير، وصلنا إلى آخر سهل رملي يسبق حطية الهوارى، وهو بعمق عدة كيلومترات، كانت الهضبات إلى اليمين واليسار تكون سلسلتين غير منقطعتين مع بعض الربى المعزولة التي تحدّد الميدان من الجنوب.

في تمام الساعة العاشرة والربع انطلقت الرصاصات الأولى على الجبهة والجناح الأيمن، وبعد قليل ازدادت حدة وقوة، وفي لحظات بركت الإبل على الأرض في نطاق ضيّق وأحاط بها الرجال المكلّفون برعايتها وكأنهم يقومون بتجربة تكتيكية ودوت أصوات الصفارات التي أطلقها الضباط وانطلقت الوحدات إلى خط النار في حين قامت الطلائع الصحراوية باحتلال المرتفعات الحجرية وفتحت النيران على تشكيلات الثوار التي كانت تتقدم في وحدات متقاربة الأمر الذي عرّضها أكثر لنيراننا.

ألقت طائرة قبل بداية الاشتباك برسالة تفيد بأن قوة كبيرة من الثوار تقدّر بخمسمائة رجل كانت تتقدم نحونا، إنهم الزوية حماة الكفرة يريدون إيقاف تقدمنا.

امتطى الكولونيل «ماليتي» جواده وأسرع إلى المواقع التي تحتلها الطلائع بقيادة الملازم «بنشيفنقا» في الوقت الذي استبعدت فيه القوات للقتال في ثلاث تشكيلات ثم تقدمت إلى خط النار بقيادة الرائد «بوزيللي» وقد رفع البيرق أحد العساكر الأريتريين.

اشتد إطلاق الرصاص وتدخلت الرشاشات التي نقلت بسرعة إلى الصخور القريبة وشرعت في حصد قوات العدو، ودفع الكولونيل «ماليتي» بجنوده إلى الهجوم وكانوا يناوئون بصورة عجيبة وبهدوء. ولم ينزعجوا من الرصاص الذي كان يطلقه العدو بسرعة وبدون دقة، وكان العدو يحاول الصعود فوق الصخور مهللاً، إلا أنه أصبح هدفاً ثميناً لنيراننا التي فتحت ثغرة كبيرة في وسط المحلة التي واصلت تقدمها بثبات ودون أن تختل صفوفها.

العدو شجاع وجدير بقواتنا، وقد انتقل جميع الضباط إلى الصف الأول يتبعون القائد، قام العدو بمحاولة التفاف على يمين قواتنا، وقد قامت بهذه المحاولة قوات من الثوار كانت مختبئة بين الصخور، فأسرع الكابتن «فابري» الذي يقود قوة شبه احتياطية لم تشترك في القتال، أسرع بقواته لمواجهة الثوار الذين قاوموا بشدة إلى أن تمّ التغلّب عليهم، واستدعى هؤلاء الجنود لإبادة مجموعة من الثوار تجاوزتهم قواتنا وقد أخذوا يطلقون نيرانهم على ظهور جنودنا وتسبّبوا في الخسائر المؤلمة الوحيدة التي وقعت، فقد أصابوا الملازم «بيبيتوني» قائد المدفعية المحمولة على الإبل برصاصة في معدته عندما كان يحاول وضع القطع في البطارية، وقد مات في المساء في مستوصف الزيغن حيث نقله الكولونيل «لوردي» بالطائرة بعد نهاية المعركة، واخترقت رصاصة قبعة الملازم «هلتزل» الذي كان يقود قواته لمواجهة الثوار الذين تغلغلوا في

صفوفنا، وواصل تقدّمه غير مبالياً بالنيران إلى أن استقرت رصاصة في جبينه بعد أن أصاب بدويان، وتوقف اندفاعه إلى الأبد، واستطاعت قواتنا بعد قليل من التغلب على قوات الثوار المنعزلة ولم يستطع أحدهم الإفلات من قبضة القدر، وبعد مرور ساعتين ونصف على بداية القتال كانت المعركة لا تزال تدور بعنف شديد رغم خسائر العدو المخيفة.

عند منتصف النهار كانت قواتنا قد احتلت جميع المواقع المسيطرة وأخذت تقصف منها قوات العدو التي كانت لا تزال متماسكة وترتفع أصواتها بالتهليل والتكبير، وقامت بعد ذلك قواتنا بوثبة أخرى إلى الأمام، ودفعت الثوار نحو واحة الهوارى، إلا أن العدو قام بآخر محاولة التفاف حول جانبنا الأيسر، غير أن سرية من القوات غير النظامية تصدّت للهجوم وردّته، وقامت بهجوم مضاد مكّنها من الالتفاف على جناح الأعداء الأيسر مما اضطرهم إلى التراجع يتبعهم المهاجمون.

الكولونيل «ماليتي» وجميع الضباط يتقدمون من القوات الزاحفة على طول الخط تحميها وتساعدها المدفعية التي وسعت مرماها والرشاشات المحمولة على الأكتاف والتي نصبت فوق المرتفعات الصخرية التي تحدّ جانبياً ميدان الصراع.

لم يعد الثوار يستطيعون مقاومة ضغط قواتنا الصحراوية وشرعوا في الانسحاب خطوة بخطوة مع استمرار قتالهم لعرقلة تقدّم قواتنا حتى يتسنى لهم الانسحاب إلى بداية نخيل الواحة للقيام بآخر مقاومة.

وحدثت قرب الساعة الواحدة والنصف ضجة إلى اليمين من الجبهة وحركة غير عادية انها قوات «كامبيني» الطرابلسية وقد وصلت على ظهور الإبل التعبة، بعد اجتيازها لأراضي جهنمية، وقد اشتركت في القتال وقت وصولها وركزت عملياتها ضد الثوار الذين كانت تطاردهم قواتنا غير النظامية إلى الجانب الأيمن من الجبهة، في الوقت الذي كانت تضغط عليهم القوات البرقاوية من الأمام، وقد أخذ الثوار يتراجعون بسرعة نحو الواحة للنجاة بأرواحهم.

الساعة الثانية ببعد الزوال: ترك الكولونيل «ماليتي» إلى الطرابلسيين مهمة تطهير المواقع التي كانت مجموعات صغيرة من الثوار لا تزال تقاوم من داخل البيوت والزرائب والجدران القصيرة، في الساعة الرابعة لم يعد هناك ثائر واحد في واحتي الهواري والهواويرى اللتين تجاوزتهما قواتنا وغدت على مرأى من واحة الجوف.

قرّرت قيادتنا التوقف في السهل الأحمر الحجري على بعد نصف كيلومتر من خط الواحات كي لا تجد نفسها وقت الغروب متورطة في قتال داخل شبكة الواحات الداخلية رغم اليقين بأن المقاومة قد انتهت ولا تعترض تقدمنا أية عراقيل.

كانت خسائرنا عبارة عن أربعة من القتلى بينها ضابطان وعشرة من الجرحى جراحهم غير خطيرة(*)، وقد هبط الكولونيل «لوردي» بطائرته بين الجنود، ونقل الضابطان الجريح والقتيل إلى الزيغن في الوقت الذي كانت فيه قوات طرابلس تواصل تطهير الواحة من بقايا الثوار، أغربت شمس اليوم على قواتنا وهي معسكرة على بعد عشرة كيلومترات من الجوف، سعيدة بما حققته من انتصار على عدو صلب وشجاع وحازم ومصمّم على الموت دون استسلام.

أحصي عدد القتلى من الثوار الذين عثر عليهم في ميدان القتال وبين النخيل، فقاربوا على المائتين، الكثير منهم حصدتهم الرشاشات في مجموعات، وهذا ما يدل على عنف القتال الذي دار أكثر من أربع ساعات والذي واجهته قواتنا في أحسن الحالات بفضل مساندة الطيران الفعالة.

* ـ عوّدنا الإيطاليون دوماً على إخفاء حقيقة خسائرهم والتخفيف من شأنها والمبالغة في تقدير خسائر عدوهم، فهل من المعقول أن تدور معركة يوماً كاملاً بين مئات المجاهدين وآلاف المرتزقة والجنود الإيطاليين، وقد تخلّلها التفاف المجاهدين أكثر من مرّة على أجنحة القوات الإيطالية، وتغلغلهم داخل صفوفها باعتراف المؤلف، ثم يسفر القتال عن موت مئات من المجاهدين وقتل أربعة من الإيطاليين؟ لقد ذكر قتل الضابطين الإيطاليين لأنه لا يمكن إخفاء ذلك أمام مئات المرتزقة الذين قتلوا فلا داعي لذكرهم، فالمهم أن يقال انهم كسبوا المعركة بأقل الخسائر.

المترجم

لو أن الإنذار ببداية هجوم العدو تأخر بضع دقائق، لكان في إمكان الخصم أن يحتل المواقع المسيطرة التي ركّزنا فوقها رشاشاتنا، ولكانت المعركة أطول وأصعب ولزادت خسائرنا بصورة محسوسة.

نفّذ حكم الإعدام بالرصاص في ليلة 19 - 20 في أربعة أشخاص قبض عليهم وأسلحتهم في أيديهم، وأطلق سراح تسعة آخرين لأنهم لا يكوِّنون أي خطر، وقام الكولونيل «ماليتي» باستجوابهم فقالوا جميعاً إن حدّة القتال قد فاجأتهم وأربكتهم حيث كانوا يعتقدون أنهم سيواجهون قوة صحراوية لا يزيد عدد رجالها عن بضع مئات من المقاتلين الذين أنهكهم التعب والعطش، كما أكد لهم ذلك زعماؤهم، إلا أنهم واجهوا قوات كبيرة مستعدة ومقاتلة، واعترف الأسرى بحجم الهزيمة والخسائر الباهظة التي لحقت بهم، وأضافوا أن الاقتناع كان سائداً بأن الكفرة لن يستطيع الإيطاليون احتلالها.

تجمع الصحراويون حول النيران في المعسكر الإيطالي يحلمون بعجائب الكفرة التي سيحتلونها بعد بضعة ساعات في الوقت الذي سلكت فيه بقايا الثوار وأطفالهم ونساؤهم طرق القوافل المؤدية إلى مصر أو السرير القاحل الذي يربط أرخبيل الكفرة بالعوينات، الواحة البعيدة الواقعة على حدود السودان.

وظل في الكفرة التجار والعبيد الذين لم يشاركوا في القتال وبضعة مئات من البدو المسالمين الذين كانوا يرتعدون من الخوف.

تحرّكت قواتنا عند الفجر، لاحتلال الواحات الداخلية، ووصلت قرب الثامنة على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من التاج حيث تقدم مفاوضان يحملان العلم الأبيض ومعهما وثيقة جاء فيها:

«نحن سكان الجوف، نشعر منذ احتلال ايطاليا لليبيا بالذنب للأخطاء والجرائم الكثيرة التي ارتكبناها، ونأسف بصدق عن ذلك، ونرجو من قائد

الجيش الإيطالي المنتصر أن يرحمنا ونحن مستعدون للاستسلام دون شروط، وكان في أسفل الوثيقة بعض التوقيعات(*).

اطلع الكولونيل ماليتي على الوثيقة وأعطى التعليمات الشفوية التالية:

«عودو إلى الجوف، وأنذروا السكان أنه إذا انطلقت رصاصة واحدة ضدنا فسوف أصدر الأوامر بتدمير البلد وقتل الجميع(**).

فأحنى الرجلان رأسيهما وعادا إلى الجوف.

وجاء بعد نصف ساعة رجل آخر يحمل رسالة من الجوف ننقل فيما يلي الجزء الرئيسي منها:

«نحن التجار المجابرة، انتظرنا منذ سنوات مجيء الجيش الإيطالي العظيم حفظه الله وإننا لمسرورون بانتصاره ونتوسل إلى قائده الشجاع أن يأمر بإيقاف القصف الجوّي الذي دمّر بيوتنا ويعرض للخطر حياتنا وممتلكاتنا»[1].

وعندما كانت طلائعنا لا تبتعد عن التاج إلا بضعة أمتار، قبل التاسعة بقليل لاح من على بعد زنجي يحمل علماً أبيض يتبعه شاب غير ملتح يرتدي ملابس فاخرة زاهية الألوان وهو حسونة الخطابي العضو الوحيد من العائلة السنوسية الذي لم يغادر الكفرة وظل محاطاً بنسائه وطاعة عبيده المطلقة، وهو يمثل قوة

* ـ غرور القوة وأساليب إيطاليا الهمجية المعتادة، فما ذنب المسالمين العزل أن تهدم بيوتهم ويقتلون جميعهم، لأن بطلاً أراد أن يضحي بنفسه ويطلق الرصاص على الغزاة، إنها وصمة عار جديدة تضاف إلى ما سبقها من وصمات دنّست تاريخ ايطاليا في ليبيا.

** ـ هذه الوثيقة مشكوك في قيمتها وصحتها، وقد يكون كتبها بعض المهزومين الخائفين ولا ندري لماذا يعتذرون ويأسفون، والكفرة لم تكن أبداً في أيدي القوات الإيطالية.

المترجم

1 ـ ان مجيء هؤلاء المساكين ليتوسلوا إلى القائد الإيطالي برفع الأذى عنهم دليل على أن الطائرات واصلت قصفها للكفرة حتى بعد أن توقف القتال.

المترجم

منهارة مضادة للتاريخ مثل المارد الذي رجلاه من طين وقد انهار عند اصطدامه بالحقيقة التي تكتسح الأصنام المزورة وتستند على الإيمان والإرادة.

دخلت قواتنا التاج في الساعة التاسعة وسبع دقائق وتمّ احتلال الجوف بعد ثلاثة أرباع الساعة، وانطلقت في الحال مفارز قواتنا لملاحقة الفارين.

وهكذا قد أزالت الكفرة آخر علامة استفهام كانت لا تزال تعكس ظلها على الصحراء الليبية الشاسعة.

استخدام الطيران
في العمليات الصحراوية

استخدام الطيران في العمليات الصحراوية

أكدت حملة الكفرة على إمكانية القيام بعمليات حربية في المناطق الصحراوية باستخدام قوات خاصة مجهّزة جيداً ومدرّبة، إلا أن تجربة القوات الصحراوية التي بلغت درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتي الذي يمكنها من قطع أراض قاحلة، كان اجتيازها في الماضي شبه مستحيل وربما مستحيلاً، إلا أن هذه التجربة لا تمنع من الإشادة بالدور الذي قام به سلاح الطيران الذي ربما يبدو دخيلاً في عمليات كهذه، إلا أن التجربة أثبتت أنه لا غنى عنه بالنظر إلى النتائج التكتيكية التي قدّمها.

والواجب الاعتراف بأن المنطقة التي كان علينا اجتيازها كانت مجهولة بالنسبة لنا بداية من جالو، وكانت المعلومات التي لدينا مستقاة من تقارير المكتشفين الذين قطعوا الصحراء إلى الكفرة وعادوا منها، ولا نجد واحداً منهم قد سلك طريقاً تناسبنا وذلك بالإضافة إلى المعلومات التي قدّمها لنا رجال القوافل الزوية الذين تعوّدوا على طرق هذه المنطقة الصعبة، ولا تهمّنا المعلومات الأولى إلا لانعكاساتها ويراودنا الشك لأسباب كثيرة، في دقّتها وصحتها، أما المعلومات الثانية جاءت من أفراد يجهلون كل ما له أهمية من الناحية العسكرية، وطبيعة الأرض وصلاحيتها للسير عليها بوسائل ميكانيكية، وكذلك الموارد المتاحة لقوافل كبيرة والمواقع المناسبة للتوقف ولهبوط الطائرات وغير ذلك..

وقد وضع الدكتور بريتسي تقريره بأمانة، غير أن المنطقة التي تهمنا والواقعة

ما بين الزيغن والجوف فقد اجتازها وهو أسير وعاجز عن القيام بأية قياسات، كما أن التوقف خلال الرحلة كان غير منتظم وبالتالي فمعلوماته تعتبر ناقصة وقليلة الدقة وتقتصر على الشريط الضيّق الذي سلكه بريتسي وهو في الأسر.

ولقد كان من الضروري التعرّف على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من جالو بدقة أكثر، وقد اتضح أن الطيران وحده في إمكانه إيجاد حل لهذا المشكل المستعصي.

قامت طائرتان من قوة طيران برقة بقيادة الكولونيل «لوردي» في 15 سبتمبر 1929، لأوّل مرّة بعملية استطلاع المنطقة الصحراوية الشاسعة وحلّقت فوق الواحات الغربية الخارجية في أرخبيل الكفرة أي تازربو وبزيما، وكانت المرّة الأولى التي استطاع فيها الجناح البشري اختراق زرقة تلك السموات وقد نقل إلى قلب الصحراء غناء المحركات والعلم الإيطالي، وتكرّرت بعد ثمانية عشر يوماً عمليات الاستطلاع وعادت الطائرات بالعديد من الصور والمعلومات التي أفادت في رسم مخطط تقريبي كامل للمنطقة والتعريف بالصعوبات الكثيرة التي تعترض أي تغلغل فيها.

وبعد عشرة أشهر من الدراسة والاستعداد لعملية جديدة مسلحة، فقد قام سرب من الطائرات في 31 يوليو 1930 بقصف واحة تازربو وألحق بها الخراب عقاباً، وللتدليل على أن إيطاليا ساهرة ولن تسمح بمواصلة عمليات الغزو التي يقوم بها سكان الواحات الصحراوية ضد الأهالي الخاضعين في الأراضي المحتلة(*).

وتحققت أعظم عملية صعبة على مسافات بعيدة في الصحراء، حيث قام رتل

* ـ عمليات الغزو التي يتحدث عنها المؤلف لم تكن ضد الأهالي وإنما ضد المراكز الإيطالية والقوات التابعة لها.

المترجم

من السيارات المصفحة بقيادة الماجوري «لورنزيني» وقد ضمّ مجموعة من جنود الفريق الثاني (ميليشيا فاشيستية) بالتحرّك من جالو إلى الزيغن عبر السرير القاحل لأكثر من أربعمائة كيلومتر بإرشاد بعض طائرات «روميو» التي تزوّدت في الزيغن بالوقود والقنابل التي نقلتها السيارات، ثم انطلقت صوب التاج والجوف فألقت عليها قنابلها، وعادت إلى قاعدة الزيغن المؤقتة، وقد انتهكت بذلك آخر مائتي كيلومتر تفصل الزيغن عن الكفرة وستمائة كيلومتر في خط مستقيم ما بين الأخيرة وجالو، وتمّت هذه العملية في منطقة قاحلة لا أثر للحياة فيها، تتخللها في المائتي كيلومتر الأخيرة شقوق وتلال رملية، وصخور تجمعت للدفاع عن الواحة المحرّمة.

ولم تقتصر مهمة الحملة الجوية على قصف حصن العدو بالقنابل بل أكدت استحالة سير السيارات في المنطقة الواقعة إلى جنوب الزيغن ولذلك فإن أية حملة عسكرية تحاول الوصول إلى الكفرة يجب أن تعتمد على الموارد المنقولة على ظهور الإبل.

وعلى ضوء هذه المعلومات تقرّرت وأعدّت الحملة التي شارك فيها النقيضان: رجال الهجانة المرتبطين بأقدم وأبطأ وسائل النقل، والطائرات التي تعتبر أحدث وأسرع وسيلة نقل، وعندما تحرّكت قوات الاحتلال من جالو متجهة إلى الجنوب وواجهت مشاق الرحلة الصحراوية، قام سرب من طائرات (RO1) بقيادة الكابتن «نابولي» بدراسة واستصلاح الأرض وكان في كل يوم يهبط إلى جانب المعسكر وكأنه يريد أن يحميه من الغضب السماوي، وفي كل صباح ترفع الخيام ويتواصل السير وتواصل الطائرات رحلاتها في سماء الصحراء وتحلّق فوق الإبل والسيارات وتمد قائد القوة بالمعلومات ثم تهبط لترتفع من جديد وتهبط ثانية، وقد ثارت الصحراء ضد هذه الجرأة وجنّدت جميع قواها:

الرياح العنيفة الماكرة، ورشات مفاجأة تصحبها تغيرات متواصلة في اتجاه الرياح، وزوابع رملية وضباب كثيف، لقد استعملت الطبيعة جميع أسلحتها ولكنها لم تستطع أن تثني إرادة الإنسان، ولم يؤثر انقلاب إحدى الطائرات عند هبوطها بسبب الضباب وقد نجا طياروها.

وفي يوم 12 يناير وصلت الزيغن آخر دفعة من طائرات (RO1) تحمل الجنرال غرازياني وكاتب هذه المذكرات وهبطت في المطار الذي جهّز وتحوّل إلى قاعدة متقدمة جداً، وأودع في هذه الطائرات ستون طناً من الوقود وستة أطنان من الزيوت وخمسة عشر طناً من المتفجرات وعشرة آلاف طلقة لرشاشات الطائرات.

وبداية من يوم 14 يناير، اليوم الذي تحرّكت فيه القوات من الزيغن في اتجاه الكفرة، ازدادت جهود طيارينا بقيادة الكولونيل لوردي دون ملل أو كلل، والكولونيل لوردي لا يعرف التعب ويستمد من الخطر الأسباب لعمل أجود وأكثر.

فرسان السماء الزرق لا يتوقفون ويطيرون عندما تسمح الأحوال الجوية، وأيضاً عندما يكون الجو لا يرحم بزوابعه وضبابه، ويطيرون على ارتفاع منخفض خطر منذ الفجر وحتى غروب الشمس. وتتغلغل الرمال التي يحملها القبلي في الأجهزة الأكثر حساسية ودقة وتؤثر فيها ولا سبيل لدفع هذا العنصر المخاتل، ومع هذا فعلى الطائرات أن تحلّق في الفضاء كل يوم لاستطلاع المنطقة المواجهة للقوات الزاحفة والتحقق من وضع الأرض ومواصلة الارتباط بالقوات الطرابلسية التي كانت تسلك طريقاً غربياً يؤدي إلى الهوارى.

وبعد ثلاثة أيام من المسير ويوم توقف، أصبحت قواتنا على بعد ثمانين كيلومتر من الكفرة أي مسافة يومي سفر، وقد وسع الطيران مجال نشاطه حتى الواحات محلّقاً فوق البيوت ودارساً لثنايا الأرض، وأصابت رصاصات الثوار

الأولى صقور الصحراء وقد أضيف هذا العمل التدميري إلى ما تقوم به الرمال من مصاعب في وجه الطائرات، وقد زادت هذه الصعوبات من حماس طيارينا الشباب بقيادة الكولونيل لوردي، وقد جعل الجميع قدوتهم دوق بوليه الذي ارتدى بزة الطيران فوق ملابسه الصحراوية ولم يعرف الجميع الراحة، فكان الفنيون يفكون المحركات ويقومون بإصلاحها وإعادة تركيبها في الخلاء بصورة إبداعية، وكان الطيارون والمراقبون يتفانون في الاحتفاظ بالارتباط بالقوات الزاحفة وإشعارها بكل جديد قد يهمّها.

وعسكرت قوات «ماليتي» مساء يوم 18 بالقرب من قارة الهواورية، ثم تحرّكت في الصباح في اتجاه واحة الهوارى عبر سهل انتشرت فيه المرتفعات الصغيرة التي قد تخفي وراءها أخطر الكمائن، استمر اتصال قوات «كامبيني» بالقيادة إلا أنها لا تزال متأخرة بضعة كيلومترات ولا تستطيع أن تقدم مساعدة مفيدة وقت الحاجة ويتولى الدوق والكولونيل لوردي على رأس أربع طائرات، مهمة استطلاع المنطقة الواقعة ما بين الهوارى والجوف، وكانا أول من لاحظا تقدّم العدو وأبلغا القيادة بذلك وعادا للتحليق فوق الأعداء، فأمر الكولونيل ماليتي باحتلال المواقع المسيطرة واستعد للقتال في حين انطلق الرائد كامبيني بدوابه المنهكة بعد إشعاره بتحرّكات الأعداء، لمدّ يد المساعدة لزملائه البرقاويين مسترشداً بتوجيهات إحدى الطائرات.

ليس من السهل إعطاء صورة واضحة للدور الذي قام به الطيران في معركة الهوارى، ويكفي القول أن الاتصال بين الطائرات والقوات البرية كان متقناً وذلك بفضل الإشارات التي كان يقدمها الملازم «سالفيتات» الذي تابع مسيرة الهجانة وواصل إعدادها بالمعلومات، هذا في الوقت الذي تولّت فيه طائرتان أخريان المحافظة على الارتباط وإطلاق نيران رشاشاتهما على تشكيلات الثوار الذين أصابوهما أكثر من مرّة، (أصابت رصاصة اسطوانة إحدى الطائرات،

فاخترقتها من طرف إلى آخر)، كما غادرت طائرتان أخريان إلى الزيغن وعادتا بعد قليل بسبع حمولات من القنابل، وهبطت الطائرتان قرب القوات ثم طارتا من جديد لتحميل المعلومات إلى القيادة لاستحالة تشغيل الراديو، وذلك في الوقت الذي كان يتواصل فيه القتال وتتقدّم قواتنا ضد العدو، واستمر الكولونيل لوردي في قيادة الطائرات الأخرى وترك قيادة طائرته للملازم «توندي» واحتل مكان المراقب وباشر في ضرب الثوار بالقنابل والرشاشات وركز ضرباته بصورة خاصة على القوافل الأولى التي كانت تحاول نقل من كانوا يريدون الفرار للنجاة بأرواحهم(*).

لقد نفدت جميع القنابل واضطر الكولونيل لوردي وطائرتان أخريان إلى الهبوط ثم أقلع من جديد إلى الزيغن حاملاً معه بعض الجرحى الذين كانت جراحهم خطيرة.

واصلت الطائرات في فجر اليوم التالي مطاردة الفارين ولم تترك مجموعة واحدة متجهة إلى الشرق أو الجنوب إلا وضربتها بالرشاشات وشتتها، فكان الرجال يفرّون باحثين عن مكان يقيهم شر النيران أو ينبطحون على الأرض، وكانت الحيوانات تقتل والمؤن تتلف ومن المعروف أن المسافر في الصحراء بدون وسائل نقل أو مياه فهو مواجه الموت الأكيد.

وتداولت خمس عشرة طائرة طول اليوم على مطاردة الفارين وإرشاد قوات الهجانة لملاحقتهم بقدر ما يسمح لها به وقودها.

وفي يوم 21 تواصلت المطاردة وتجاوزت الطائرات خط الاستواء واستمرت في اطلاق رشاشاتها على الفارين، وتمكن عدد قليل من الثوار اجتياز الحدود في

* ـ كان معظمهم من النساء والشيوخ والأطفال الذين كانوا يريدون الفرار من جحيم الطائرات التي لم ترحمهم وصبّت غضبها على دورهم وحيواناتهم.

المترجم

حالة مزرية يكادون أن يموتوا عطشاً وقد تركوا حيواناتهم وأطفالهم ونساءهم على طريق القوافل(*).

لقد قامت الطائرات في الفترة ما بين يومي 22/19 بخمسمائة ساعة طيران ألقت خلالها على المجاهدين ودورهم وأسرهم وحيواناتهم ألفي قنبلة وعشرة آلاف طلقة رشاش وذلك دون خسائر إذا استثنينا الرصاصات التي أصابت بعض الطائرات في أجنحتها وتغلغلت إلى المحرك، ومع هذا فلم يضل أي طيار أو يهبط اضطرارياً أو يطلب المساعدة وقد تمكنوا دائماً من الوصول إلى بئر الزيغن في الوقت المحدد رغم أنها مدينة خيام كانت ضائعة في وسط الصحراء، حيث تكوِّن السحب نقطاً سوداء وحيث تثير الرياح الغبار وتجعل الرؤية متعذِّرة.

ونود أن نذكر أسماء هؤلاء الشجعان الذين واجهوا الأخطار والتضحيات وفي طليعتهم دوق بوليه الذي كان دوماً على رأس كل عمل جريء، ثم الكولونيل لوردي الرئيس والجندي العظيم والكابتن/ تيساري ونابولي ودي ماتيرا وكازيللي وتوندي وأونقارو وسانتاقاتا، والملازمين دراقو وروما نيولي وتوريزي، وسالفيتات، وغيرهم ممن لا تسعفنا الذاكرة بأسمائهم من المراقين والطيارين والفنيين والعاملين على الرشاشات الذين استماتوا في أداء واجبهم.

إن هذه الكلمات المتواضعة تفصح عن العمل العظيم الذي قدّمه الطيران والذي اندمج مع عمل القوات البرية في تنسيق متكامل.

لم تعد الصحراء عائقاً يتعذّر اجتيازه ولم تعد المسافات الكبيرة تؤخر تحقيق العمليات الباهرة، فعندما تعد الآلات بصدق ويدرّب الرجال على الصعاب فإن

*ـ من المعروف أن قوات الحدود المصرية هبّت لإنقاذ المجاهدين وأُسَرِهِمْ ونقلهم إلى الحدود المصرية وهم ما بين الموت والحياة كما أن كثيرين قضوا نحبهم في الصحراء عطشاً.

المترجم

كلمة مستحيل تتلاشى كما قال نابليون وخاصة عندما تلتقي أصوات المراوح بنبض الشباب المصمم على النصر أو الموت في سبيل إيطاليا في سماء الصحراء وفوق رمالها.

مهزلة الكفرة

لقد تعرّضنا في الفصول السابقة للأحداث والمعلومات التي اعتقدنا أنها ضرورية لإعطاء القارئ صورة لحملة الكفرة، التي تناولتها الصحافة الأجنبية مشكورة بموضوعية وأعطتها حق قدرها من الأهمية باعتبارها نموذجاً للعمل الصحراوي بعيد المدى..

وليسمح لنا قبل أن نصل إلى الخلاصة التي لا نعتقد أن من تتبع سردنا حتى الآن يشاركنا فيها، أن نتحدث قليلاً عن الكفرة، التي تتولى حماية جميع واحاتها قوات الرائد «بوزيللي» باعتبار أن الكثير ممن عرفوا الصحراء عن طريق الأشرطة السينمائية الأمريكية وما تقدّمه صحف المملكة من صور رومانسية عاطفية ومن الشعر الصحراوي، وصور للنخيل والآبار التي تتجمع حولها الفتيات لأخذ المياه والتي تستهوي المرضعات في الحدائق العامة وطالبات معاهد التعليم، ولندع جانباً من لا يعرفون الحملات العسكرية الاستعمارية ليتحدثوا كما يشاؤون عن الصحراء ولا يفرّقون بين المحلة والملاحة، ومع ذلك فكل ما يكتب عن الصحراء حتى وإن شابته الشاعرية يفيد الدعاية الاستعمارية.

لقد أصبحت الكفرة موضوع الساعة وستأخذ وقتها من الشهرة، ولا تعود أهميتها إلى احتلالها ونهاية السنوسية فيها أو القضاء على عمليات الغزو الصحراوية أو ما أظهرناه من براعة سوقية استعمارية أكدتها التجارب، أو فكرة غرازياني التكتيكية في الاستغناء عن الكتائب الأريترية والاستعاضة عنها تدريجياً بالمجموعات الصحراوية الأكثر تحرّكاً وسرعة والمزوّدة بالاكتفاء الذاتي في مواجهة عدو متمرس وخبير بحياة الصحراء والرحل ومستعد دوماً للاختفاء

أمام قواتنا، فأهمية الكفرة لا تعود إلى جميع هذه العوامل وإنما لاستضافتها رفات السيد المهدي، ولأنها تنسج حولها الأساطير وتحميها سلسلة من الرمال والأحجار من عيون الفضوليين، ولذلك نعود ونكرر الحديث عن هذه الواحة ونركز حديثنا على موضوع لم ينشر من قبل وفرضت الظروف السكوت عليه في الماضي.

لقد ذكرنا في هذا الكتاب أكثر من مرة موضوع البعثة الصحية برئاسة الدكتور بريتسي التي أرسلتها حكومة برقة إلى الكفرة في شهر سبتمبر 1928، بناء على طلب السنوسي (محمد العابد) الذي كان سيد المنطقة، وقد تكوّنت البعثة من الدكتور بريتسي والسكرتير الترجمان «ألدو فورناري» ومن الماريشاللو (ضابط صف) «بوليقيدو المكلف بالتلغراف والراديو(*)»، وجهزت القافلة في جالو التي تمّ احتلالها قبل بضعة أشهر والتي غادرتها البعثة في اليوم الأول من شهر اكتوبر في طريقها إلى الكفرة الواحة الغامضة، وقد صحب البعثة دليل من قبيلة زوية، وفي يوم 17 اكتوبر عندما وصلت البعثة إلى بئر بوعتله بوادي الزيغن أحاط بها قرابة مائتا مسلح وقادوها إلى الجوف التي وصلت إليها بعد ثمانية عشر يوماً من المسير والتوقف، وظل رجال البعثة في الأسر أربعة أشهر، في الوقت الذي اتخذت فيه المفاوضات عدة طرق من الممكن الاطلاع عليها في الكتاب الذي نشره الدكتور بريتسي الذي جاء ذكره في هذا الكتاب أكثر من مرة، وتحدّد من خلال المفاوضات دفع فدية مقابل إطلاق الأسرى قدرت بأربعة ملايين ليرة إيطالية بالإضافة إلى إطلاق سراح السيد الرضا السنوسي الذي كان منفياً في أوستيكا، إحدى الجزر الإيطالية، إلا أن المبلغ المطلوب خفض إلى مليونين ثم إلى خمسمائة ألف ليرة، وذلك من خلال مفاوضات شاقة، وأخيراً أملى زعماء زوية، الذين اجتمعوا في التاج بلسان عبد الحميد بومطاري شروطهم التي لا تقبل أي تعديل.

---

* ـ كان يرافق البعثة ممرض عربي يدعى مسعود.

«يسلم الأسرى إلى السلطات المصرية في سيوه التي تتولى ترحيل الكفار بعد دفع مائتي الف ليرة إلى السلطات المصرية أو إلى الموثوق بهم من زوية المقيمين في سيوة هذا بالإضافة إلى تعهد كتابي من ملك إيطاليا يصدق عليه ملكاً بريطانيا وفرنسا بأن القوات الإيطالية لن تحتل الكفرة أبداً»، وقد طلب فورناري الخبير بهؤلاء الناس الجهلاء والمغرورين أن يسافر إلى سيوة ومنها إلى الاسكندرية للحصول على الأموال من المفوضية الإيطالية، وبعد رحلة طويلة شاقة، وصل فورناري إلى سيوة ومنها ذهب إلى الاسكندرية ثم إلى بنغازي حيث تحصل على المبلغ المطلوب بالإضافة إلى مصاريف القافلة وغيرها، وذهب فورناري إلى إحدى الشركات الإيطالية العاملة بالإسكندرية وتحصل منها على ورقتين مزيّنتين بالرسوم والميداليات من الشهادات التي توزّع على المشتركين في المعارض التجارية، وكتب على إحداها الضمانات المطلوبة وعلى الأخرى كتب بالآلة الطابعة باللغة الإيطالية سلسلة من الشتائم ووقّعها باسم نوما بومبيليو ملك روما.

وعاد فورناري بالرسالتين والنقود إلى سيوة وسلّم النقود إلى ممثلي زوية مع التعهد بعدم دفعها إلا بعد تسليم الأسرى، وأرسل إلى الكابتن بريتسي الرسالتين المزوّرتين وقد سأل بومطاري الدكتور بريتسي عن صحة الوثيقتين فأكّد له ذلك ضاحكاً في سرِّه من غباء هؤلاء الناس، وأمر بومطاري بتعليق الوثيقتين بالقصر ثم سمح لأفراد البعثة بمغادرة الكفرة يوم 2 مارس 1929، ووصلوا سيوة بعد أربعة عشر يوماً من السير في طريق لم يسلكها أوربي من قبل.

وكان «فورناري» في انتظار أعضاء البعثة في سيوة، وسافر معهم إلى الإسكندرية ومنها أبحروا إلى بنغازي، وأرسل الزوية بعد قليل الوثيقة إلى سيوة لقراءتها والتأكد منها فأدركوا الحقيقة وكتموا الأمر ولم تشر الصحافة المصرية إلى الموضوع كي لا تحرج إخوانهم الزوية، وكذلك فإن الدكتور بريتسي الدقيق في ذكر تفاصيل المفاوضات التي تـمّت مع الزوية لم يتعرّض لهذا الموضوع في كتابه.

السكرتير «فورناري» يحتل الآن وظيفة استعمارية، أما رفيقه «بوليقيدو» فقد دخل الكفرة على رأس قوة عاملة وبندقيته بيده وقد صبّ جام غضبه في الهوارى، وكان أول من أعلن في الإذاعة احتلال الكفرة.

وتردد ذكر عملية الضحك على الزوية هذه في فترات الراحة بين الضحك والسخرية في الخيام المنضوية في قارة التاج، وأشيد بروح الدعابة الإيطالية الدائمة حتى في الأوقات الصعبة والخطرة(*).

* - إن قصة هذه الوثائق والضمانات التي طلبها زعماء زوية والضحك عليهم بتقديم أوراق مزوّرة، فهي بدون شك من نسيج خيال فورناري أو أحد موظفي السفارة الإيطالية بالإسكندرية، فالقصة من أوّلها إلى آخرها نسجها خيال ساذج ومن العار على المؤلف أن يذكرها ويفاخر بها، في الوقت الذي لم يشر الدكتور بريتسي رئيس البعثة والمسؤول عنها، والذي تولى المفاوضات مع زعماء زوية، لم يشر في كتابه الذي ضمّنه أحداث الرحلة، لا من قريب أو من بعيد إلى هذا الادعاء التافه ولا نجد أي مبرّر لعدم ذكرها، كما أن قول المؤلف أن القصة لم تعلن حتى الآن لظروف خاصة، فلا ندري ما هي الدواعي والأسباب التي أجبرت إيطاليا على التكتم عن أمر ساذج كهذا كما يدّعي المؤلف الذي أراد أن يتخذ من هذه الأكذوبة التافهة دليلاً على غباء خصوم إيطاليا وجهلهم، بينما هو يعلم في قرارة نفسه أن الرجال الذين قاوموا إيطاليا وقواتها الباغية عشرين عاماً وخبروا ألاعيبها ووسائلها الخبيثة ووعودها التي لا تفي بها، يدركون أن الكفرة بعد قصف تازربو بالقنابل والغازات لن تحميها الوعود ولا الضمانات وإنما الدفاع عنها بما توفّر من قوة إمكانيات واستماتة.

المترجم

مستقبل الواحات الصحراوية والخلاصة

مستقبل الواحات الصحراوية والخلاصة

إن نهاية حملة الكفرة المظفرة واحتلال الأرض الداخلية البرقاوية والصحراء الليبية التي خصّصت لبرقة جغرافياً وسياسياً، قد حدّدت ممتلكاتنا على البحر الأبيض المتوسط في إطار حدودها الحالية إلى حين، وسيظل مصير العوينات معلّقاً، وهو الجزء الذي زاره حسنين بك في رحلته الثانية وحدّد شكله، وهو الجزء الذي تتكوّن منه المنطقة الواقعة جنوب ـ غرب أركينا ويقع تقريباً عند التقاء خط العرض 22 شمالاً مع خط الطول 25 شرق «غرينيتش» والذي يطلق عليه اسم العوينات وهو الاسم المستمد من الواحة الواقعة بهذا الجزء، وإذا تركنا جانباً أن العوينات التي تقع في سفح جبل ارتفاع 1100 متر، تعتبر جزءاً متمماً لبرقة، فإن الصعوبات التي أثارها الإنكليز والفرنسيون في وجهنا تكتسب صفة أفلاطونية شكلية، لأنها تستند على الخط الذي يرسم الحدود بين برقة والمملكة الإسلامية المجاورة لها.

(الذي يتبع باستمرار خط الطول 25 ويتوقف عند خط العرض 22 ويستبعد بذلك وجود العوينات في مصر أو السودان)، وهناك أدلة وحجج كثيرة تساند فكرتنا هذه.

نحن لسنا مؤهلين لدراسة الموضوع ولا نريد باعتبارات متسرعة وسطحية أن نؤثر في وجهة نظرنا ونكتفي حالياً باستيلائنا على المنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء، ولا شك أن رياح الشمال الغربي قد نقلت صدى أصوات محركات طائراتنا التي انطلقت في سماء الصحراء لتطارد الهاربين من الكفرة.

وقد يكون من الأفيد والأهم في الوقت الحاضر التحدث قليلاً عن واحات الجنوب الصحراوية وعن مدى فائدتها بالنسبة لإيطاليا وعن احتمال تطويرها في المستقبل.

والحديث عن الواحات الصحراوية وفوائدها المحتملة، يدعو القارئ إلى النظر إلى الموضوع من جانب متواضع يأخذ في الاعتبار أن الفوائد المحتملة يجب أن تدرس بصورة نسبية لا مطلقة وأن التخلي عن الإمكانيات ذات الصبغة الاقتصادية لصالح النتائج السياسية التي سيعطي الحصول عليها الكثير.

كانت برقة بعد الاستيلاء على اجدابيا عام 1928 معرّضة للتهديد الصادر من الجنوب لقد كانت الصحراء عبارة عن باب مفتوح على أواسط افريقيا المنطقة التي تعمّها الفوضى والاضطرابات وتمثل في الغالب مسرحاً للحوادث الوحشية وحوادث الغزو المتكرّرة.

وباحتلال واحتي جالو وأوجله والوصول إلى خط العرض 29 خف الضغط على اجدابيا إلا أنه لم يتلاشَ تماماً وظل الثوار الذين لم نتمكن من تدميرهم والسيطرة عليهم يواصلون هجماتهم على الشمال والاستيلاء على حيوانات القبائل الخاضعة لنا وتهديد خطوط تموينا تنا.

وكانت واحات الكفرة مشجعة لمثل هذه العمليات، وكانت آبار الزيغن ومراعي تازربو ونخيل بزيما وتازربو تكوّن نقاط تموين وتوقف مناسبة، وملجأ من الأخطار، وعندما تقرّرت العمليات الأخيرة ارتأينا عدم الاكتفاء باحتلال الواحات المذكورة ودفع الاحتلال إلى الواحات الواقعة في وادي الكفرة وعلى أطراف المنخفض وهي الواحات التي إذا لم نبادر إلى احتلالها فإن جميع مبادراتنا ستظل دوماً معرضة للخطر، كما أنه من الواضح أن سكان الكفرة إذا ابتعدوا عن الشمال والشمال الغربي سيعملون على توثيق علاقاتهم بالشمال الشرقي والجنوب ويتخلّصون من رقابتنا، وقد دلّت التجارب على أن أية دولة

استعمارية لا تستطيع المحافظة على ممتلكاتها أو تستفيد منها إذا اقتصر احتلالها على المناطق الساحلية وإقامة بعض الحاميات المنعزلة في الدواخل، وظلت إيطاليا لسنوات عديدة راضية .بمثل هذا الوضع أسوة بتركيا التي ظلّت قروناً تبسط سيادتها على المناطق الشمالية الأفريقية، واقتنعت بسيادة اسمية على الدواخل باعتبارها دولة بعيدة عن أية فكرة استعمارية حديثة وغير راغبة في الدخول في حروب ضد العنصر الوطني، فالمستعمرات الأفريقية الواقعة على البحر الأبيض مفيدة وقابلة للاستغلال إذا خضعت بكاملها للاحتلال، وإذا نظمت بصورة متحضّرة، وقامت فيها أجهزة حكومية وعسكرية ومدنية، تمارس سلطاتها العادية والعقابية .بموجب سيادة الدولة وسلطانها عليها.

لقد كان إذن من الطبيعي أن تعمل الحكومة الفاشيستية على بسط سيادتها المباشرة على جميع الأراضي التي اعترفت لها بها المعاهدات الدولية وذلك بدفع احتلالها إلى خط الحدود الجنوبية، التي لم تتأكد بعد، بسبب تنافس الدول الاستعمارية وقلّة نضوج الحكومات الإيطالية السابقة، التي أهملت أو تخلّت عن المطالبة برسم هذه الحدود.

إن التخوف الذي بدا مؤخراً في بعض صحف الدول الاستعمارية لا يخلو من مغزى لأنه من البديهي بعد وصولنا، إلى الحدود المؤقتة التي خصصت لنا أن نطالب بالدخول في مناقشات مع الدول التي تسيطر على هذه المناطق، من أجل تعديل الأخطاء وسد الثغرات الماضية وبقسمة عادلة تؤدي إلى تعديل الحدود التي وضعتها اللجان في الماضي والاتفاق على حدود جديدة تؤمن حاجة توسعنا الضروري.

فإذا أضفنا إلى جميع الأسباب المذكورة، أهمية الكفرة بالنسبة للعالم الإسلامي بوصفها آخر مركز وقلعة للطريقة السنوسية، ونقطة التقاء ومرور في وسط الصحراء الليبية والسوق المتبقي للعاج الأسود، بعد إلغاء تجارة الرقيق في

المستعمرات البريطانية والفرنسية، والمركز القديم بمنطقة ليبيا الرملية الذي ذكره هيرودوت في تاريخه ومقصد المتعصبين من الزوار السنوسيين، ونقطة توقف إجبارية للقوافل المتجهة إلى البحر الأبيض المتوسط، فجميع هذه الأسباب كانت تدعو إلى ضرورة احتلال الكفرة وضرورة إزالة جميع العناصر المعكرة للتوازن في الصحراء.

لجأ الثوار وقطاع الطرق إلى ما وراء الحدود بعد معركة الهواري، ورفع العلم الإيطالي فوق التاج، فراراً من عدالتنا ومن الموت الأكبر الذي كان يلاحقهم في الصحراء الشاسعة ولم يعد هناك خوف من عودتهم، أولاً بسبب افتقارهم إلى الوسائل الكافية لتنظيم حملة كبيرة، وثانياً لا تسمح أية قاعدة صحراوية داخل حدود المستعمرات والدول المجاورة بإعداد مثل هذه الحملة، وذلك بالإضافة إلى سيطرتنا الفعلية واليقظة عن طريق الوحدات الموزعة بصورة مناسبة والمزوّدة بوسائل الحرب والحماية الحديثة (الطيران والمصفحات والسيارات) وهي الوسائل التي لا يعرفها أهل الصحراء.

وبعد هذه المقدمة نجيب تلقائياً على السؤال الذي ربما تبادر إلى ذهن القارئ منذ قراءته للصفحات الأولى من هذا الكتاب وهو (ماذا سنفعل بالكفرة؟) أليس هناك خطر في أن الكفرة بعد أخذها من سكانها العاديين تتحول تدريجياً إلى عبء سلبي لا يطاق؟ المشكلة تستحق كل اهتمام، ونجيب عليها بصورة متعقلة، إن الكفرة التي تبعد عن العوينات مسيرة بضعة أيام، تمكن قواتنا الصحراوية المنتشرة في مختلف الواحات من مراقبة الحدود المؤقتة وممارسة رقابة فعلية على المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الكفرة والمجهولة تقريباً، وستقع في شبكة رقابتنا أكبر طرق القوافل الصحراوية التي قلّ استعمالها الآن وينتظر لها في المستقبل ازدهاراً متواضعاً رغم ما تبذله فرنسا من محاولات لتوجيه تجارة افريقيا الاستوائية والوسطى إلى منافذ أخرى، وقد يتحقق ذلك إذا استطعنا أن نقوم بسياسة تقارب موزونة وذكية مع القبائل المتاخمة وخاصة تلك التي استفادت كثيراً في السابق من تبادل السلع والمواد الأساسية.

لا نستطيع الحديث عن استعمار زراعي في الكفرة، إلا أنه من الملاحظ أن واحات الكفرة تنتج أكثر مما يستهلك سكانها وأن قوات الاحتلال يجب أن تعيش على الموارد المحلية فقط حيث يتوفر فيها التمر والشعير والقصب والزيتون والخضروات ووفرة في المياه والأراضي الصالحة للزراعة، والشيء الوحيد الذي تفتقره الواحة هي الأيدي العاملة الزراعية، حيث كان في الماضي يعتمد على العبيد، ولا شك أن هذا النقص قد يعرض الأراضي لغزو الرمال، ومن المعروف أن إيطاليا ألغت الرق إلا أن الأرقاء باقون في الواحة، ومن الممكن استغلالهم وتدريبهم ومنحهم أراضي المسئولين والثوار الذين فرّوا، للعمل فيها لمصلحتهم.

فالكفرة ستكون حارس إيطاليا المتقدم في اتجاه افريقيا الاستوائية وهي لن تكون بأي صورة كانت عبئاً على اقتصاد المستعمرة بل ستقدم له بصورة مباشرة أو غير مباشرة فوائد محسوسة، ويجب أن لا ننسى من خلال دراستنا لهذا المشكل، مبدأً سياسياً عاماً وهو أن كل ضرر يلحق بالعدوّ يجب اعتباره فائدة كبيرة حتى ولو أن قيمتها لا تلمس في الحال.

ولا ثمة شك في أن الضرر الذي لحق بالسنوسية المعادية لتوغلنا واضح ولا يحتاج إلى أدلة ونكتفي بما كتبته السيدة روزيتا فوربس في هذا الخصوص ونورد فقرة لها مغزاها الكبير رغم أسلوبها الأنثوي البسيط[1]، «لقد فكرت وخططت منذ سنوات للوصول إلى الكفرة وقد استولى على خيالي التفكير في هذه الواحة المقدّسة ومركز أكبر طريقة إسلامية، المصانة والمحافظ عليها بقوة، مركز النفوذ العظيم الذي حاربته الدول الأوربية بالتناوب، وهكذا قمت تدريجياً بدراسة «زواغ» والتاج المقدّسة ولاحظت أنهما يكوّنان العنكبوت في وسط الشبكة التي تعتبر خيوطها طرق القوافل الطويلة التي تمتد في جميع الاتجاهات من طرابلس إلى السودان ومن بحيرة تشاد إلى مصر، فالكفرة تسيطر على الطرق الصحراوية في نصف الصحراء الشاسعة».

1 - روزيتا فوربس المصدر المذكور، ص 158.

إن استيلاءنا على الكفرة قد دمّر وأجاع أكبر وأخطر أعدائنا وحرّر الصحراء الليبية من احتمالات قطع الطرق التي أصبحت تحميها حامياتنا الطرابلسية في الجنوب وفصائل رقابة الحدود في الشرق، وقد استطعنا بذلك أن نزيح عن جنوب بنغازي الضغط والقلق. وسيكون في إمكان هذه المنطقة ولا شك، أن تحل محل المصريين في تجارة القوافل من وإلى مجموعة الواحات البعيدة.

إن الفائدة الاقتصادية واضحة، بالإضافة إلى الكسب السياسي الضخم، الذي لم يقيّم بعد والذي تحاول الصحافة الأجنبية التعتيم عليه، وبذلك نكون قد أجبنا على السؤال الثاني.

ولننتقل للرد على السؤال الثالث:

ليس من السهل التنبؤ بمستقبل الواحات الصحراوية على ضوء ما بحوزتنا من معلومات تقودنا إلى نتائج مؤكدة.

فالعوامل الثلاثة الرئيسية التي تقوم عليها حياة الواحات والتي يتوقف عليها رخاء وتقدم المنطقة هي: عدد السكان والإمكانيات الزراعية وعدد وأهمية القوافل العابرة وهذه العناصر مرتبطة ببعضها ومتبادلة بحيث لا يمكن فصلها عن بعضها.

سكان جالو وأوجله مستقرون ولا يتوقع أي تغيير هام في وضعهم فقد تعوّدوا على الاستقرار، ويفضلون المقايضة وتجارة القوافل على زراعة الأرض فالمساحات المزروعة في عهد رولفس كانت ولا شك أهم من الحياة، ويعود ذلك حسب اعتقادنا، إلى ميل المجابرة والأواجلة إلى تجارة القوافل، وبدلاً من الزراعة التي تضاءلت مساحاتها لا بسبب غزو الرمال وإنما بسبب قلة اليد العاملة التي في إمكانها إيقاف عمل الطبيعة المدمر.

لقد اعتبر رولفس أن جالو وأوجله في مستوى سطح البحر، ثم جاء حسنين بك ليؤكد أنهما ترتفعان 63 متراً عن سطح البحر، وربما يعود هذا الاختلاف إلى

تراكم الرمال التي تنقلها رياح الجنوب، وبما أن المناطق المزروعة في جالو كثيرة ومربحة ولا يوجد بين المزارع المتاخمة لبعضها أي فارق في المستوى، وهو الأمر الذي يدعو إلى تفسيرين: إما أن الرمال التي تنقلها الرياح تتحول إلى تربة صالحة للزراعة بصورة منظمة ومستديمة، وفي هذه الحالة، فإن غزو الرمال لا يخيف أحداً وسيكون في الإمكان انتزاع الأراضي والحقول من الرمال، وإما أن هناك خطأً في القياسات، وعلى كل حال لا يوجد تخوّف من ضرر مستقبلي.

من المحتمل أن واحتي تازربو وبزيما الغنيتان بالمياه والمراعي لا تتوقف فيهما وتيرة حياتها العادية، ومن الممكن تطويرهما بتشجيع هجرة محدودة معقولة إلى هاتين الواحتين ويفضل أن يكون المهاجرون من جالو وأوجله أو بعض قبائل سرت التي ترغب في الاستقرار في مكان مناسب.

ويعتبر الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للزيغن، لقد كانت عامرة بالنخيل في الماضي، وقد مرّ إثنان وخمسون عاماً على وضع خارطة رولفس، وقد استطاعت الرمال خلال هذا الفترة أن تقضي على الحياة النباتية فيها، والسؤال المطروح بالنسبة للزيغن، هل الرمال هي التي دمرت إرادة الإنسان، أم أن الإنسان لم يعمل على مقاومة الرمال؟ لقد اعتبرت الزيغن دوماً مصدراً للمياه ولم يهتم أحد بتشجيع الزراعة فيها، رغم أن البعض تولى زراعتها في وقت بعيد، وربما أراد سكان الكفرة تجريدها من الحياة لتزداد صعوبة الوصول إلى الكفرة إضافة إلى ما تقدمه الصحراء من دفاع عنيد، وقد يلاحظ البعض لماذا لم تتبع نفس الوسيلة بالنسبة لتازربو، وبزيما، الواقعتين على طريق الكفرة، وهناك بعض الآراء القائلة بأن مصير الواحتين الأخريين لا يمكن ربطه بأي حال من الأحوال بمصير الزيغن، فمن المؤكد أن سكان الكفرة كانوا يتبادلون العلاقات والتجارة مع طرابلس وفزان، وقد اعتبرت السنوسية واو الكبير امتدادها الغربي، الأمر الذي يدعو إلى إيجاد واحات نشطة من أجل توقف وتموين القوافل في طريقها

إلى فزان وهي الطريق التي تعتبر في نفس الوقت خط مواصلات هام يربط جنوب الجزائر بطرابلس والسودان. فوجود واحات نشطة لتموين واستراحة القوافل أمر هام ومفيد، كما أنه ليس من السهل تدمير مثل هذه الواحات التي تتخللها بحيرات ومستنقعات وتتوفر فيها المياه والمراعي الوحيدة في المنطقة التي تغذي حيوانات الكفرة.

ومن المعتقد أن منطقة الزيغن قابلة لزراعة متواضعة لبعض الأشجار وخاصة النخيل الذي كان بها في الماضي والدليل على ذلك بقايا النخلة التي لا تزال قائمة ورأينا هذا يعتبر نسبياً وإن كان رولفس من هذا الرأي أيضاً.

ومن الملاحظ أن الكفرة كانت تخشى دوماً غزوها من الشمال ولم تهاجم أبداً من الغرب، والتاريخ يعيد نفسه، والتبو خير دليل على ذلك.

تحدثنا عن الواحات الداخلية عندما تعرّضنا للحديث عن الرق، ولا داعي للعودة إلى الموضوع، لقد عاد إلى الكفرة الكثيرون من سكانها الذين فرّوا يوم القتال خوفاً من القنابل، لا بسبب عدائهم لنا، وسيعود غيرهم فيما بعد ويعود إلى الكفرة مزارعوها.

يبقى الحديث عن تجارة القوافل وهو أمر غير واضح المعالم، إلا أننا نؤمن بالمستقبل وبالفطرة السليمة لدى الشعوب البدائية، فعندما يقتنع سكان الجنوب الليبي وسكان المستعمرات الفرنسية المجاورة، بأن احتلالنا لا يكوّن ضرراً على تجارتهم وأن سلعهم ستستمر، كما هو الحال منذ قرون، في التوجه إلى الشمال، وأن تجارنا سوف يتلقون طلباتهم من المنتوجات الأوربية ويزوّدونهم بما يحتاجونه، فلا شك أن السلع سوف تأخذ طريقها إلى الشمال، وخاصة بعد إصلاح طريق السيارات من بنغازي إلى الكفرة التي سوف تسهل كثيراً حركة التجارة بين الجنوب والشمال وستعود إلى برقة المنتوجات الأفريقية التي ستتكفل أسواقنا بامتصاصها وإرسالها إلى أوربا لإجراء التغييرات المناسبة عليها،

ومن المعروف أن التعامل مع الشعوب الأفريقية يحتاج إلى أسلوب ولباقة وصبر طويل.

انقل فيما يلي هذه الفقرة التي كتبتها روزيتا فوربس:

«تمثل الكفرة بالنسبة لإيطاليا محط آمال كثيرة، وفي برقة تُمثل طموح الكثير من الشباب الجريء، من ضباط الحكومة، الصعب تحقيقه؛ في حين أن الكفرة بالنسبة لإنكلترا غير معروفة»[1].

إن الكاتبة والمستكشفة البريطانية الشجاعة رأت المشكل بوضوح، وأصبحت الأماني حقيقة ملموسة باهرة.

أصبحت الكفرة إيطالية وقد أزال النصر الحديث ذكريات عهود الضعف وأكدت سلامة العنصر الذي وجّهته الفاشيستية إلى طرق روما القنصلية، التي يجب السير فيها بسرعة لاستعادة الزمن والأرض المفقودة.

لقد ولّى عهد الاتفاقيات المشينة، وسقطت الإمارة وسقطت معها الفكرة المصطنعة التي وجدت مؤيدين لها، وغرقت معها السنوسية وأصبحت محطّمة ومشتّته، بعد أن صالت وجالت وفرضت قوانينها لسنوات طويلة.

إن العلم الإيطالي المرفوع في قلب الصحراء الليبية هو رمز لسلطان لن يغرب لأن إيمان خمسين مليون إيطالي يسانده وإرادة شباب يقدم حياته من أجل سمو وشرف الفكرة يؤيد ويحمي هذا السلطان.

إن تضحية القتلى ولهفة الباقين على الحياة قد رسمت مراحل التوسعات المقبلة وبشّرت بانتصارات كبيرة.

باسم روما الأم، وبقيادة الدوتشي، وصليب سافويا، سوف تحقق إيطاليا جميع هذه الانتصارات.

١ - روزيتا فوربس - المصدر المذكور ص 140.

محتويات الكتاب

DANTE MARIA TUNINETTI

IL MISTERO DI CUFRA

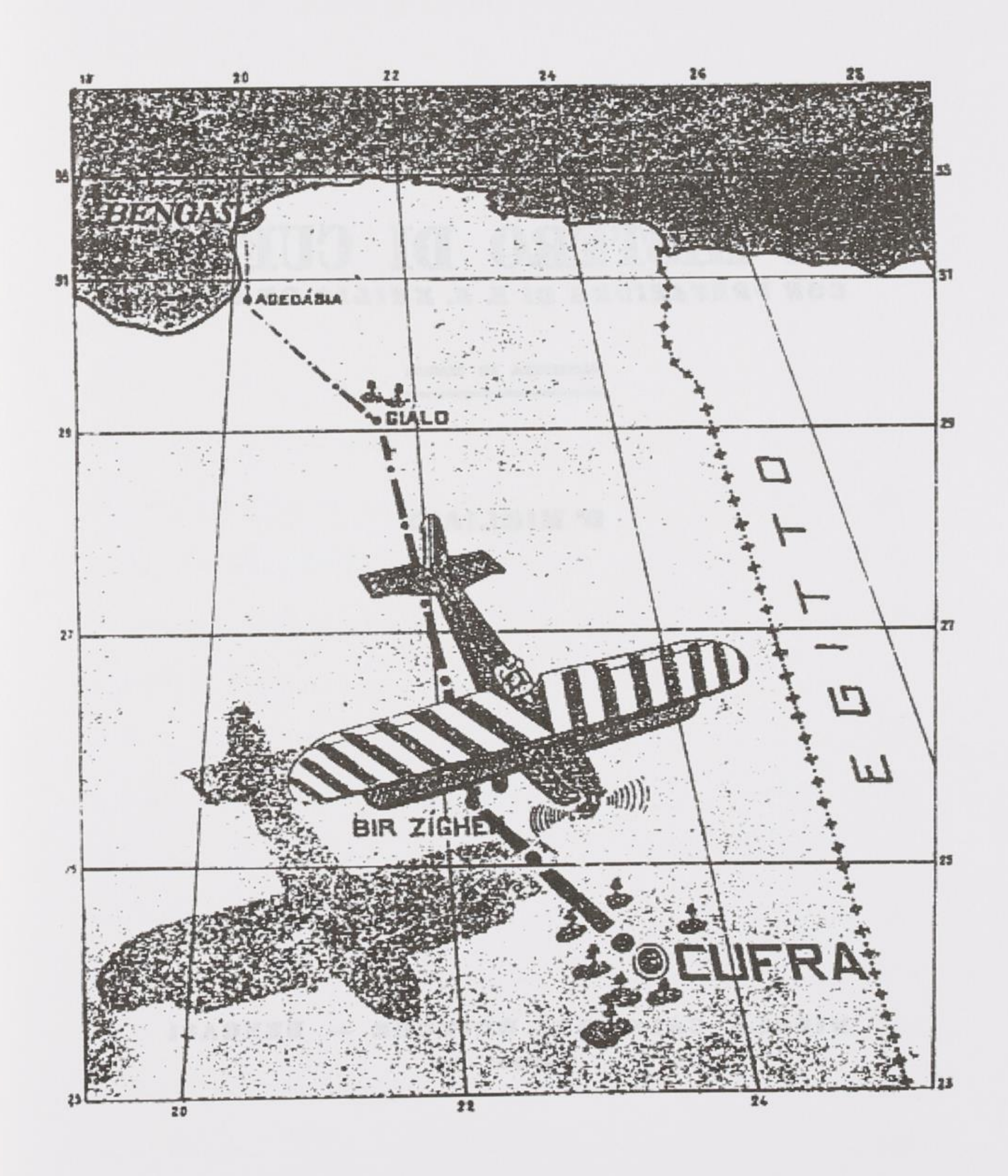
CON PREFAZIONE DI S. E. EMILIO DE BONO

[illegible]

6° MIGLIAIO

NICOLA CALCAGNI EDITORE — BENGASI

MCMXXXI - IX


BENGASI
AGEDÁBIA
GIALO
BIR ZÍGHEN
CUFRA
EGITTO

الكشاف العام

فهرس الأعلام

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

فهرس الفِرق والقبائل والجماعات

فهرس الأماكن والبلدان والمواقع